

الكتاب الأول



بَيِّنَاتُ أَحْصَاءِ الْعَالَمِ

شَرْحُ

خِلَاصَتِهِ

تَعْظِيمِ الْعِلْمِ

صَنَّفَ الْكِتَابَ وَأَمَلَى شَرْحَهُ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ

صَالِحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدٍ الْعُصَيْمِيِّ

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِسَائِرِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل للعلم أصولاً، وسهّل بها إليه وصولاً، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلّم ما بيّنت أصول العلوم، وعلى آله وصحبه ما أبرز المنطوق منها والمفهوم.
أمّا بعدُ:

فهذا شرح الكتاب الأوّل من برنامج «أصول العلم» في سنته الرّابعة، ستّ وثلاثين وأربعمائة ألف وسبع وثلاثين وأربعمائة ألف، وهو كتاب «خلاصة تعظيم العلم»، لمصنّفه صالح بن عبد الله بن حمد العُصيميّ.



قال المصنف وفقه الله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المعظم بالتوحيد، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد المخصوص بأجل المزيدي، وعلى آله وصحبه أولي الفضل والرأي السديد.
أما بعد:

فهذه من كتابي «تعظيم العلم» خلاصة اللفظ، أعدت بالتقاطها لمقصد الحفظ، فاستخرج منه للمنفعة المذكورة اللباب، وجعل فيه الأنموذج من كل باب؛ ليكون في نفوس الطلبة شمس النهار، ويترشحوا بعده إلى العمل والادكار.
فأسأل الله لي ولهم لزوم معابد التعظيم، والفوز بجوامع فضله العظيم.



قال الشارح وفقه الله :

أبتدأ المصنف وفقه الله كتابه بالبسملة؛ أتباعاً للمنقول في السنة النبوية في مراسلات النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أرفدها بالحمدلة، ثم ثلث بالصلاة والسلام على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه.

ثم ذكر أن هذه النبذة - وهي كتاب «خلاصة تعظيم العلم» - هي من كتاب له آخر أسمه «تعظيم العلم» (خلاصة اللفظ)؛ أي: نقاوته؛ فخلاصة الشيء: هي نقاوة الشيء، ويُقال: نقاوة - بفتح النون -، ونقاية - بضمها -، ولا يصح النقاية - بكسرها -؛ فمن اللحن المشهور قولهم: (نقاية كذا وكذا)، والصواب: (نقاية كذا وكذا).

ثم ذكر أن الحامل له على جعل هذه الخلاصة أنه أعدها (بالتقاطها لمقصد الحفظ)؛ لأن ما

أريد حفظه حسن تقليل لفظه، فاللفظ يُقلل ليحفظ، ويكثر ليفهم.

ثم بين السبيل التي أدت إلى جعل هذه الخلاصة بقوله: **(فاستخرج منه للمنفعة المذكورة**

اللباب، وجعل فيه النموذج من كل باب)، فمدار هذه الخلاصة في صنعها على أمرين:

أحدهما: أنها أحتوت لباب كتاب «تعظيم العلم»، ولباب الشيء: خالصه.

والآخر: أنه جعل فيه النموذج من كل باب؛ والنموذج هو: المثال المحتذى،؛ فجعل

في كل باب مثال يحتذى به يدل على باقيه، والنموذج - بهمز في أوله -، ويقال أيضًا:

النموذج - بلا همز.

وأختلف في عربيته على قولين:

أحدهما: أنه عربي صريح.

والآخر: أنه أعجمي عرّب فصار من الفصح.

ثم ذكر الباعث له على وضع هذه الخلاصة فقال: **(ليكون في نفوس الطلبة شمس النهار،**

ويترشحوا بعده إلى العمل والادكار)؛ فمنفعة اختصاره ترجع إلى أمرين:

أحدهما: بأن يكون واضحًا بينًا كشمس النهار، وبها يضرب المثل في الوضوح والبيان.

والآخر: الترشح بعده إلى العمل والادكار - أي التهيؤ له -، بأن ترقى النفوس بعد

التلقي إلى العمل والادكار.

والادكار هو: الاعتاظ والاعتبار، أصله: **الاذكار** - **بذال** ثم **دال** -، ثم أبدلت

الذال **دالًا** وأدغمت في الأخرى، فصارت (الادكار).

ثم ختم المصنف ديباجة كتابه بدعاء الله سبحانه وتعالى له ولِمَنْ تلقى كتابه من الطلبة

(لرؤم معاقد التعظيم، والفوز بجوامع فضله العظيم) - جعلنا الله وإياكم ممن يعظم

العلم ويفوز من الله بفضله العظيم.

قال المصنف وفقه الله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وأشهدُ ألا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم،
وعلى آله وصحبه عدد من تعلم وعلم.
أما بعد:

فإن حظَّ العبد من العلم موقوفٌ على حظِّ قلبه من تعظيمه وإجلاله، فمن أمتلأ قلبه
بتعظيم العلم وإجلاله صلح أن يكون محلاً له، وبقدر نقصان هيبة العلم في القلب، ينقص
حظُّ العبد منه، حتى يكون من القلوب قلب ليس فيه شيء من العلم.
فمن عظم العلم لاحت أنواره عليه، ووفدت رسل فنونه إليه، ولم يكن لهمة غاية إلا
تلقيه، ولا لنفسه لذة إلا الفكر فيه، وكان أبا محمد الدارمي الحافظ لمح هذا المعنى، فحتم
(كتاب العلم) من سننه المسماة بـ«المُسْنَدِ الْجَامِعِ» بباب في إعظام العلم.
وأعوان شيء على الوصول إلى إعظام العلم وإجلاله: معرفة معاقب تعظيمه، وهي
الأصول الجامعة، المُحَقَّقة لعظمة العلم في القلب، فمن أخذ بها كان مُعْظِماً للعلم مجلاً له،
ومن ضيعها فلنفسه أضرع، وهواه أطاع، فلا يلومن - إن فتر عنه - إلا نفسه، (يداك أوكتا
وفوك نفخ)، ومن لا يكرم العلم لا يكرمه العلم.



قال الشارح وفقه الله :

ذكر المصنف مقدمة ثانية بعد المقدمة الأولى.

والفرق بينهما: أن تلك المقدمة السابقة هي مقدمة كتاب «خلاصة تعظيم العلم»، وهذه المقدمة الثانية هي مقدمة «تعظيم العلم»، وأختصرها على النحو الذي جرى عليه في كتابه؛ فهي مُختَصِرٌ خطبته كسائر ما بقي من الكتاب؛ فإنه موضوعٌ على وجهٍ مختصرٍ.

وزاد في هذه المقدمة فيما أُستفتح به على سابقتها: ذُكر الشهادتين؛ ففيها زيادةٌ على مقدمة «الخلاصة» ذُكر الشهادتين، وهما: الشهادة لله بالوحدانية، ولحمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة.

ثم ذكر بعد أن (**حَظَّ الْعَبْدُ مِنَ الْعِلْمِ**) - وهو: نصيبه، فالحظُّ هو: النّصيب - (**مَوْقُوفٌ عَلَى حَظِّ قَلْبِهِ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ**)؛ أي: مُرْتَمِنٌ بقدر ما يكون في قلبه من تعظيم العلم وإجلاله؛ فالعلم الذي يحوزه العبد يكون ملائماً للحال التي يكون عليها قلبه من تعظيم العلم وإجلاله، فإن القلوب تتفاوت حظوظها فيما تحوزه من العلم باعتبار اختلاف حظوظها من تعظيم العلم وإجلاله، وهو الذي ذكره في قوله: (**فَمَنْ أَمْتَلَأَ قَلْبُهُ بِتَعْظِيمِ الْعِلْمِ وَإِجْلَالِهِ صَلَحَ أَنْ يَكُونَ مَحَلًّا لَهُ، وَبِقَدْرِ نُقْصَانِ هَيْبَةِ الْعِلْمِ فِي الْقَلْبِ، يَنْقُصُ حَظُّ الْعَبْدِ مِنْهُ، حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْقُلُوبِ قَلْبٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ**).

والعلم المراد هنا هو: العلم النافع الذي يورث العمل، وتتجلى أنواره على صاحبه فهماً، وإصلاحاً، ودعوةً، وإرشاداً.

فلا يُراد بالعلم مجردُ جمع المعلومات، فإنك ترى من الخلق مَنْ لا يقيم تعظيم العلم وإجلاله في قلبه، وتراه حائزاً شيئاً من العلم، لكن العلم الذي حازه موقوفٌ على المعلومات فقط؛ فلا تجد لهذا العلم أثراً في عمله، ولا في دعوته، ولا في إصلاحه، ولا إرشاده، ولا تُفتح له مُغلقات العلوم، ومشكلات الفهوم، فهو مجرد جماع للمعلومات.

والعلم الذي ينفع العبد هو الذي يدعو إلى العمل ويحيط العبد هيبته، وفهماً، وإدراكاً، وإصلاحاً، وإرشاداً، وبه يتباين الخلق.

ثم قال مبيِّنا أثر تعظيم العلم على القلب: **(فَمَنْ عَظَّمَ الْعِلْمَ لَاحَتْ أَنْوَارُهُ عَلَيْهِ)؛** أي: ظهرت أنواره عليه، **(وَوَفَدَتْ رُسُلُ فُنُونِهِ إِلَيْهِ)؛** أي: قدمت رُسُل فنونه إليه، فصار نور العلم عليه، وأصاب حظًّا من فهم فنون العلم والمشاركة فيها.

قال: **(وَلَمْ يَكُنْ لَهُمَّتِهِ غَايَةً إِلَّا تَلْقِيَهُ، وَلَا لِنَفْسِهِ لَذَّةٌ إِلَّا الْفِكْرُ فِيهِ)**، فمتى أستوى في القلب تعظيم العلم صارت همة طالبه تتعلّى في جمعه، ووجد لذّة يأنس فيها بالعلم تُغنيه عن كلّ لذّة.

ثم ذكر أن أحد الحُفَاط - وهو أبو محمّد الدّارميّ، وأسمه: عبد الله بن عبد الرّحمن السّمرقنديّ الحافظ صاحب «سنن الدّارميّ» وغيرها - **(لَمَحَ هَذَا الْمَعْنَى، فَخَتَمَ كِتَابَ الْعِلْمِ) من سننهِ المُسمّاة بِ«المُسْنَدِ الْجَامِعِ» بِبَابِ فِي إِعْظَامِ الْعِلْمِ**، فإنه أفتح بقوله: (كتاب العلم)، ثم أورد فيه أبوابًا، جعل في كلّ بابٍ أحاديث وآثارًا، ثم ختم تلك الأبواب ببابٍ في إعظام العلم؛ للإنباه إلى أن ما تقدّم ذكره من أبواب العلم في أنواعه وأدبه وتحصيله مردها جميعًا إلى وجود هذا المعنى، وهو: إعظام العلم في القلب.

فإذا وجد العبد في قلبه إعظام العلم وإجلاله حصل الخير فيما يطلبه من العلم، وإذا فقد هذا المعنى من قلبه لم ينل الخير العظيم في العلم.

ثم بيّن المصنّف - وفقه الله - السبيل الموصلة إلى حيازة القلب تعظيم العلم وإجلاله؛ فقال: **(وَأَعُونَ شَيْءٌ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى إِعْظَامِ الْعِلْمِ وَإِجْلَالِهِ: مَعْرِفَةُ مَعَاقِدِ تَعْظِيمِهِ)؛** فأجلُّ شيء يعينك على أن تكون مُعظِّمًا للعلم مُجَلًّا له هو: معرفتك بمعاقد تعظيم العلم.

والمراد بـ(معاقد تعظيم العلم) المذكور في قوله: **(وَهِيَ الْأُصُولُ الْجَامِعَةُ، الْمُحَقَّقَةُ لِعِظَمَةِ الْعِلْمِ فِي الْقَلْبِ)**، فهي أصولٌ كليّةٌ في مواردٍ متعدّدة، يتحقّق بها تعظيم العلم في القلب إذا استعملها العبد.

فمثلاً: أوّل تلك المعاهد: تطهير وعاء العلم، فإذا أعتنيت بتطهير وعاء العلم - وهو القلب - رميت بسهم في تعظيمه، فإذا أنتقلت إلى معقدٍ آخرٍ رميت سهماً ثانياً، فإذا أنتقلت إلى معقدٍ ثالثٍ رميت سهماً ثالثاً، وعلى كثرة السهام تكون كثرة الصيد، فإن الصائد الذي يخرج ومعه من آلة الصيد سهامٌ كثيرةٌ أخرى بأن يُدرك صيداً كثيراً من صائدٍ لا يكون معه إلا سهمٌ أو سهمان، فضلاً عن أن يكون قد خرج بيديه يرجو الصيد ولا سهم له.

فكذلك الملتمسون للعلم؛ لا يجوزون العلم بشيءٍ أكثر من أن يكون مُعظّمين له في قلوبهم، فإنهم إذا عظّموا العلم في قلوبهم جمعوا عُدةً صالحةً لقبول نفوسهم له، وإذا فُقدت هذه العُدة فإن العلم يُفقد منهم.

وكما سلف: فليس المراد من العلم جمع المعلومات، لكن المراد هو: العلم النافع الذي تظهر بركته على العبد عملاً، وهدايةً، ودعوةً، وإرشاداً، وإصلاحاً؛ فإنك ترى من الناس من يجمع معلوماتٍ، فهو حائزٌ للعلم، لكن هذا العلم الذي عنده لا حقيقة له؛ لأنّه يُفقد منه في أحواله، فعمله على خلاف العلم، ولا أثر للعلم الذي معه في دعوة الناس ولا تعليمهم، ولا نشر الخير، ولا السعي في هداية الخلق إلى الصراط المستقيم.

ثم قال بعد: (فَمَنْ أَخَذَ بِهَا) - أي: بمعاهد تعظيم العلم - (كَانَ مُعْظَمًا لِلْعِلْمِ مُجَلًّا لَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا) - أي: بفقدانها منه - (فَلِنَفْسِهِ أَضَاعَ)؛ فمآل الخيبة والخسار لا ترجع على العلم، فالعلم يبقى عزيزاً، فحقيقة العلم هي دين الإسلام، ودين الإسلام باقٍ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولكن الذي يعود عليه الأثر الوخيم لعدم تعظيم العلم هو الساعي في تلقّيه.

قال: (وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَلِنَفْسِهِ أَضَاعَ، وَهَوَاهُ أَطَاعَ)؛ لأن العبد لا يخرج عن أمثال الأمور بشيءٍ أشدّ عليه من الهوى، فإن الهوى يمنع النفس من حملها على الأمور، فإذا اعتبرت جملةً من هذه من المعاهد المذكورة في هذا الكتاب وجدت الهوى ينازع العبد فيها.

فمثلاً: من المعاهد المذكورة فيه **(سلوك الجادة الموصلة إليه)**؛ أي: سلوك الطريق الذي يوصل إلى العلم.

وستجد في نفسك وفي الناس اجتذاب الهوى للخلق بإخراجهم عن تلك الجادة؛ فسيأتي في نعت تلك الجادة أنها تكون بتحصيل أصول العلم حفظاً وفهماً، وأنت تسمع اليوم من يقول: إنه لا حاجة إلى الحفظ في العلم؛ فهذا له نصيبٌ من قول المصنّف: **(فَلِنَفْسِهِ أَضَاعَ، وَهَوَاهُ أَطَاعَ)**؛ لأنّ كلّ مقتبسٍ علم الشريعة من عهد الصحابة فمن بعدهم لا ينازعون في قيام العلم على الحفظ، وقد دلّ القرآن والسنة والإجماع والعقل والفطرة على أنه لا علم إلاّ بحفظ، حتّى قال شيخ شيوخنا محمد بن عبد العزيز بن مانع رَحِمَهُ اللهُ في «إرشاد الطلاب»: «لا شكّ عند العقلاء أنّ العلم لا يُنال إلاّ بحفظٍ». أنتهى كلامه، فإذا أعتبرت هذه الحال وجدت لها حظاً من قول المصنّف: **(وَهَوَاهُ أَطَاعَ)**.

ثمّ قال بعدُ: **(فَلَا يُلُومَنَّ - إِنْ فُتِرَ عَنْهُ -)** - أي: أنقطع عنه، فالفتور: الانقطاع - ^(١) **(إِلَّا نَفْسَهُ)**.

ثمّ قال بعدُ: **(يَدَاكَ أَوْ كَتَا وَفُوكَ نَفَخَ)**؛ وهو مثلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ سَعَى فِي إِهْلَاكِ نَفْسِهِ، وَفَرَطَ فِي حِفْظِهَا، وَأَصْلُهُ أَنَّ رَجُلًا أَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ نَهْرًا، وَكَانَ لَا يُحْسِنُ السَّبَاحَةَ، وَمَعَهُ قَرِيبَةٌ، فَنَفَخَهَا حَتَّى أَمْتَلَأَتْ هَوَاءً، ثُمَّ أَحْتَضَنَهَا، وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي النَّهْرِ يَرْجُو أَنْ يَقْطَعَهُ بِهَذِهِ الْحَالِ،

(١) ومن اللحن الشائع عند الناس قولهم: (في الفترة من كذا إلى كذا)، فإنّ هذا معناه: (في الانقطاع من كذا إلى كذا)، فمثلاً يقولون: (سيُعقد درسٌ علميٌّ من الفترة بعد صلاة العصر إلى بعد صلاة العشاء)، فمعناه: (من الانقطاع من بعد صلاة العصر إلى بعد صلاة العشاء)، والصواب أن يقال: (في المدة من بعد صلاة العصر إلى بعد صلاة العشاء)؛ فأصل هذه المادة عن أهل العربية هي: (الانقطاع)، ومنه: الفتور؛ وهو: تكاسل النفس عن العمل، وثقلها عليه.

فلما تَوَسَّطَ النَّهْرَ تَسَرَّبَ هَوَاؤُهَا فَغَرِقَ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُوَاصِلَ سِيرَهُ، فَضُرِبَ هَذَا الْمَثَلُ فِيهِ (يَدَاكَ أَوْكْتَا وَفُوكَ نَفَخَ)، وَمَعْنَى: (يَدَاكَ أَوْكْتَا)؛ أَي: هُمَا اللَّتَانِ شَدَّتَا حَبْلَ هَذِهِ الْقِرْبَةِ.

قال: (وَمَنْ لَا يُكْرِمُ الْعِلْمَ لَا يُكْرِمُهُ الْعِلْمُ)؛ أَي: مَنْ لَا يَقُومُ بِحَقِّ الْعِلْمِ مِنَ الْإِكْرَامِ فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يُكْرِمُهُ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ بِالْعِلْمِ لَمْ يَقُمْ الْعِلْمُ بِهِ، وَمَنْ أَكْرَمَ الْعِلْمَ وَصَانَهُ وَعَظَّمَهُ فَإِنَّ الْعِلْمَ يَرْفَعُهُ، وَفِي هَذَا أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ لَا تَنْقُضِي النَّفْسَ مِنْهَا عَجَبًا.

فَمِنْ أَخْبَارِ بَعْضِ مَنْ سَبَقَ: أَنَّهُ رُئِيَ فِي الْمَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟، فَقَالَ: غَفَرَ اللَّهُ لِي، فَقِيلَ: بِمِ؟، فَقَالَ: بِأَنِّي وَجَدْتُ وَرَقَةً مِنْ كِتَابِ فِي الْعِلْمِ عَلَى الْأَرْضِ فَرَفَعْتُهَا؛ فَغَفَرَ اللَّهُ لِي. وَفِي هَذَا الْمَعْنَى آيَاتٌ وَأَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد الأول تطهير وعاء العلم

وهو القلب؛ وبحسب طهارة القلب يدخله العلم، وإذا ازدادت طهارته ازدادت قابليته للعلم.

فمن أراد حيازة العلم فليزّن باطنه ويطهر قلبه من نجاسته؛ فالعلم جوهر لطيف لا يصلح إلا للقلب النظيف.

وطهارة القلب ترجع إلى أصليين عظيمين:

أحدهما: طهارته من نجاسة الشبهات.

والآخر: طهارته من نجاسة الشهوات.

وإذا كنت تستحي من نظر مخلوق مثلك إلى وسخ ثوبك، فاستح من نظر الله إلى قلبك، وفيه إحن وبلايا، وذنوب وخطايا.

ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

من طهر قلبه فيه العلم حل، ومن لم يرفع منه نجاسته ودعه العلم وأز تحل.

قال سهل بن عبد الله: «حرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكره الله عز وجل».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

لما بيّن المصنّف وفقه الله أنّ نيل العلم موقوف على تعظيمه، وأنّ تعظيمه يُدرَك بمعرفة معاهد التّعظيم؛ شرع يبيّن تلك المعاهد واحداً واحداً، وأبتدأها بالمعقد الأوّل، وهو: **(تطهير وعاء العلم)**، فإنّ كلّ شيءٍ له وعاءٌ يُجعل فيه، ووعاء العلم: القلب، فما يُدرَك من العلم بالحفظ والفهم والنظر والتأمّل والبحث مردهُ أجمع إلى القلب.

ومنزلة العلم من القلب على قدر ما يكون له من الطّهارة؛ كما قال: **(وَبِحَسَبِ طَهَارَةِ الْقَلْبِ يَدْخُلُهُ الْعِلْمُ، وَإِذَا أزدَادَتْ طَهَارَتُهُ أزدَادَتْ قابليتهُ للعلم)**؛ فالقلب الصّالح لاستقبال العلم يدخله العلم، والقلب الذي لا يصلح للعلم لا يدخله العلم، والذي يكون مخلوطاً بالصّلاح والفساد يكون له حظٌّ من العلم بحسب ما عنده من الصّلاح، ويفوته حظٌّ من العلم بقدر ما عنده من الفساد.

ثمّ قال: **(فَمَنْ أَرَادَ حِيَاةَ الْعِلْمِ) - أي: نيّله وجمّعه - (فَلْيُزَيِّنْ بَاطِنَهُ وَيُطَهِّرْ قَلْبَهُ مِنْ نَجَاسَتِهِ؛ فَالعلمُ جوهرٌ لطيفٌ لا يصلحُ إلا للقلبِ النّظيفِ)**، والنّاس أعتادوا أن يحفظوا الجواهر النفيسة عندهم - كالذهب والفضّة والعقيق والألماس - في أوعيةٍ صالحةٍ لحفظها، والعلم أشرف من هذه الجواهر؛ لأنّ منفعة العلم تبقى في الحياة وبعد الممات، وأمّا هذه الجواهر فغاية ما يُدرَك لها من النّفع إن وُجدت وسلمت من مضرّة العبد يكون في حال الحياة فقط، فإذا كانت هذه الأعيان تُحفظ فيما يصلح لها؛ فالعلم لا يصلح حفظه، وكنزه، وجمّعه = إلا في وعاءٍ صالح له، وهو: القلب النّظيف.

ثمّ بيّن ما تُدرَك به طهارة القلب فقال: **(وَطَهَارَةُ الْقَلْبِ تَرْجِعُ إِلَى أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ: أَحَدُهُمَا: طَهَارَتُهُ مِنْ نَجَاسَةِ الشُّبُهَاتِ. وَالْآخَرُ: طَهَارَتُهُ مِنْ نَجَاسَةِ الشَّهَوَاتِ)**، فإنّ النّجاسات التي تهجم على القلب فتلتطّخه - وهي: أمراض القلوب - ترجع إلى هذين النوعين:

فأحدهما: نجاسة الشهوة.

والآخر: نجاسة الشبهة.

ولا يكون القلب طاهراً حتى تُرفع هاتان النجاستان منه.

ثم قال: **(وَإِذَا كُنْتَ تَسْتَحِي مِنْ نَظَرِ مَخْلُوقٍ مِثْلِكَ إِلَى وَسَخِ ثَوْبِكَ)** - أي: ما يكون من القدر الظاهر على ثوبك الذي تلبسه -؛ فأولى لك أن تجيب إلى ما دعاك إليه بقوله: **(فَأَسْتَحِ مِنْ نَظَرِ اللَّهِ إِلَى قَلْبِكَ، وَفِيهِ إِحْنٌ وَبَلَايَا، وَذُنُوبٌ وَخَطَايَا)**؛ لأنَّ مُنتَهَى نظر الناس منك إلى ظاهرِكَ، وأمَّا نظر الله سبحانه وتعالى إليك فإنه لا يقتصر على الاطلاع على ظاهرِكَ، بل له سبحانه وتعالى اطلاعٌ كاملٌ عليك ظاهراً وباطناً، فإذا كنت إذا أردت أن تخالط الناس في مجامعهم وجوامعهم حسنتَ هندامك وطهرتَ ثوبك وبدنك؛ فأدعى أن يكون هذا حال معاملتك مع ربك سبحانه وتعالى في باطنك، بأن يكون قلبك طاهراً، فتستحي من الله سبحانه وتعالى أن ينظر إلى قلبك متسحاً **(فِيهِ إِحْنٌ وَبَلَايَا، وَذُنُوبٌ وَخَطَايَا)**.

ثم ذكر حديث **(أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»)**؛ وفيه أنَّ نظرَ الله من العبد له موقعان:

أحدهما: نظرُ الله سبحانه وتعالى إلى قلبه.

والآخر: نظرُ الله سبحانه وتعالى إلى عمله.

فالمنظور إليه من أحدنا من الله عزَّ وجلَّ يرجع إلى قلبه وعمله؛ فيحتاج العبد إلى قلبٍ نقيٍّ طاهرٍ، وإلى عملٍ صالحٍ ظاهرٍ، فإذا نظر الله إلى قلبك كان قلبك نقيّاً طاهراً، وإذا نظر إلى عملك كان عملك صالحاً طاهراً، فبحسب ما يكون للعبد من كمال هذين الأمرين - طهارة القلب، وصلاح العمل - تكون عناية الله سبحانه وتعالى به، فإنَّ كفاية الله للعبد

على قدر إيمانه. ذكره ابن تيمية الحفيد؛ فإذا كان إيمان العبد كبيراً كانت كفاية الله كبيرةً، وإذا كان إيمانه دون ذلك كانت كفاية الله كذلك.

قال أبو الفرج ابن الجوزي في «صيد الخاطر»: «تصفية الأحوال على قدر تصفية الأعمال». أنتهى كلامه؛ أي يحصل للعبد من صفاء حاله على قدر صفاء أعماله؛ فإذا صفى العبد عمله فكان عمله صالحاً ظاهراً، وقلبه نقياً طاهراً؛ صفى الله عز وجل له أحواله، فدفعت عنه الهمم والغم والحزن فصار منشرح الصدر، قوي النفس، مطمئن القلب، وبقدر ما يفوته من صفاء عمله وقلبه؛ يفوته قدر من صفاء حاله.

وهذه الأمراض النفسية التي خيمت بظلمتها على قلوب الخلق؛ عامتها ترجع إلى هذه القاعدة في تهذيب النفس وإصلاح القلب، وهي فقدان صلاح الأعمال، فلما فقد صلاح الأعمال؛ فقد صفاء الأحوال، ويقع للعبد تخليط في أحواله على قدر تخليطه في أعماله، قال مطرف بن العلاء بن الشخير: «مَنْ صَفَى صُفِي لَهُ، وَمَنْ خَلَطَ خُلِطَ عَلَيْهِ»؛ أي: مَنْ صَفَى معاملته مع الله عز وجل في قلبه وعمله؛ صفى الله له أحواله، وَمَنْ خَلَطَ فِي تِلْكَ الْمَعَامِلَةِ وَقَعَ لَهُ تَخْلِيطٌ فِي تِلْكَ الْأَحْوَالِ.

ومن جملة ما يقع للعبد فيه تخليط وصفاء: حيازته العلم، فإنه مَنْ صَفَى عَمَلَهُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَأَحْسَنَ سُلُوكَ الطَّرِيقِ الْمَأْمُورِ بِهَا شَرَعًا صَفَى لَهُ عِلْمَهُ، وَمَنْ خَلَطَ خُلِطَ عَلَيْهِ عِلْمُهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ الْقُلُوبُ إِلَى مَا ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ: (مَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ فِيهِ الْعِلْمُ حَلٌّ) - أي: أقام، فأصاب حظّه منه -، (وَمَنْ لَمْ يَرْفَعْ مِنْهُ نَجَاسَتَهُ وَدَعَا الْعِلْمَ) - أي: تركه - (وَأَزْتَحَلَّ) - أي: أنصرف تاركاً له.

وتقدّم أنّ العلم الذي تتعلّق به هذه المعاني هو العلم النافع، لا مجرد جمع المعلومات.

ثم ختم هذا المعقد بقول (سهل بن عبد الله) - وهو التستري رحمه الله -: «حرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكره الله عز وجل»؛ أي: يمتنع على قلب أن يصيب نوراً من نور العلم والفهم وفيه شيء مما يكرهه الله عز وجل.

وشاهده في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]؛ قال سفيان بن عيينة في هذه الآية: «أحرمهم فهم القرآن»، وقال محمد بن يوسف الفريابي: «أمنعهم من تدبر أمري» - أي: كلامي، فأمر الله سبحانه وتعالى يقع أسماً لكلامه عز وجل، وهو في هذه الديانة الإسلامية القرآن الكريم.

فبقدر ما يوجد من المكروه المبعوض لله في القلب؛ تفوت الأنوار النافعة للقلب، وكما سلف فليس المقصود فوته أنه لا يصيب معلومات، ولا ينال في العلم شهادات، لكنه يفوت بركة العلم التي تتجلى في العمل والدعوة والإصلاح والإرشاد والهداية، وفتح المغلقات وحل المشكلات، وإبراز مكنون الشريعة من دقائق الفهم في القرآن والسنة، فبهذا يتفاوت الناس.

وأما المحفوظ؛ فكما ذكر ابن الحاج المالكي في «المدخل» أن كثيراً من الناس يحفظ القرآن مع مجاهرته بالمعاصي والمنكرات، فلا يكون المراد من قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] أنني أمنعهم حفظ القرآن، لكنه يمنعهم ما هو أعظم من الحفظ، وهو: فهم القرآن والعمل به، وهو الذي فاق به السلف؛ فإن السلف رحمه الله من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وإن شوركوا مع من بعدهم في حفظ القرآن، بل يكون في المتأخرين من العدد ما هو أكثر من عدد الحفاظ في الصحابة = فإن الصحابة والتابعين وأتباعهم فاقوا من بعدهم بالعمل بالقرآن وفهمه؛ فتجد لهم من فهم

القرآن وأستخراج معانيه ما لا تجده لمن تأخر، بل وقع في كلام المتأخرين من الخبط والقول على الله بغير العلم من البدع والضلالات في بيان معاني القرآن الكريم ما ينضح بالجهل. زد على هذا ما كانوا عليه من العمل الذي يُفقد في القرون التي بعدهم، فكلما تأخر الزمان وضعف نور النبوة قلَّ العمل، وكثر الجدل.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد الثاني إِخْلَاصُ النِّيَّةِ فِيهِ

إِنَّ إِخْلَاصَ الْأَعْمَالِ أَسَاسُ قَبُولِهَا، وَسُلَّمٌ وَصُورُهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً﴾ [البينة: ٥].

وَفِي «الصَّحِيحِينَ» عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَانَوَى».

وَمَا سَبَقَ مَنْ سَبَقَ وَلَا وَصَلَ مَنْ وَصَلَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمُرُودِيُّ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ - وَذَكَرَ لَهُ الصَّدَقَ وَالْإِخْلَاصَ؛ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: «بِهَذَا أَرْتَفَعَ الْقَوْمُ».

وَإِنَّمَا يَنَالُ الْمَرْءُ الْعِلْمَ عَلَى قَدْرِ إِخْلَاصِهِ.

وَالْإِخْلَاصُ فِي الْعِلْمِ يَقُومُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصُولٍ، بِهَا تَتَحَقَّقُ نِيَّةُ الْعِلْمِ لِلْمُتَعَلِّمِ إِذَا قَصَدَهَا: الْأَوَّلُ: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ نَفْسِهِ؛ بِتَعْرِيفِهَا مَا عَلَيْهَا مِنَ الْعُبُودِيَّاتِ، وَإِيقَافِهَا عَلَى مَقَاصِدِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

الثَّانِي: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ الْخَلْقِ؛ بِتَعْلِيمِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ لِمَا فِيهِ صَلَاحٌ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ.

الثَّلَاثُ: إِحْيَاءُ الْعِلْمِ، وَحِفْظُهُ مِنَ الضِّيَاعِ.

الرَّابِعُ: الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ.

وَلَقَدْ كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَخَافُونَ فَوَاتَ الْإِخْلَاصِ فِي طَلَبِهِمُ الْعِلْمِ، فَيَتَوَرَّعُونَ عَنِ ادِّعَائِهِ، لَا أَنَّهُمْ لَمْ يُحَقِّقُوهُ فِي قُلُوبِهِمْ.

سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: هَلْ طَلَبْتَ الْعِلْمَ لِلَّهِ؟، فَقَالَ: «لِلَّهِ! عَزِيزٌ، وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ حُبِّبَ إِلَيَّ فَطَلَبْتُهُ».

وَمَنْ ضَيَّعَ الْإِخْلَاصَ فَاتَهُ عِلْمٌ كَثِيرٌ، وَخَيْرٌ وَفِيرٌ.
وَيَنْبَغِي لِقَاصِدِ السَّلَامَةِ أَنْ يَتَفَقَّدَ هَذَا الْأَصْلَ - وَهُوَ الْإِخْلَاصُ - فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا، دَقِيقَهَا
وَجَلِيلَهَا، سِرِّهَا وَعَلَنِهَا.

وَيُحْمَلُ عَلَى هَذَا التَّفَقُّدِ شِدَّةُ مُعَالَجَةِ النِّيَّةِ.
قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «مَا عَاجَلْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي؛ لِأَنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ».
بَلْ قَالَ سُلَيْمَانُ الْهَاشِمِيُّ: «رَبِّمَا أَحَدْتُ بِحَدِيثٍ وَاحِدٍ وَبِي نِيَّةٌ، فَإِذَا أَتَيْتُ عَلَى بَعْضِهِ
تَغَيَّرَتِ نِيَّتِي، فَإِذَا الْحَدِيثُ الْوَاحِدُ يَحْتَاجُ إِلَى نِيَّاتٍ».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللَّهُ مَعْقِدًا آخِرًا مِنْ مَعَاقِدِ تَعْظِيمِ الْعِلْمِ؛ وَهُوَ: (إِخْلَاصُ النِّيَّةِ
فِيهِ)؛ لِأَنَّ (إِخْلَاصَ الْأَعْمَالِ أَسَاسُ قَبُولِهَا، وَسُلْمٌ وَصُورُهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا
لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً﴾ [البينة: ٥])؛ أَي: حَالُ كَوْنِهِمْ مُخْلِصِينَ الدِّينَ لِلَّهِ.

وَالْإِخْلَاصُ شَرْعًا: هُوَ تَصْفِيَةُ الْقَلْبِ مِنْ إِرَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَإِلَى ذَلِكَ أَشْرْتُ بِقَوْلِي:
إِخْلَاصُنَا لِلَّهِ صَفُّ الْقَلْبِ مِنْ إِرَادَةِ سِوَاهُ فَاحْذَرِ يَا فِطْنُ
ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «الصَّاحِحِينَ»؛ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:
«الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَأْوَى»)؛ فَعَمَلُ الْعَبْدِ مُعَلَّقٌ بِنِيَّتِهِ، وَلَهُ مِنْ عَمَلِهِ بِحَسَبِ مَا
نَوَاهُ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ دَعَاهُ إِلَى الْإِخْلَاصِ، فَالْإِخْلَاصُ هُوَ الْكَيْفِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ الْمَطْلُوبَةُ

للنية، فحقيقة النية شرعاً: إرادة القلب العمل تقرباً إلى الله.

وتلك الإرادة تكون في أعلى أحوالها في الإخلاص، فالإخلاص أكمل النية، وهو المطلوب شرعاً منها.

ثم ذكر قول (أبي بكر المرؤذي رحمه الله) - من أصحاب الإمام أحمد - : (سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ - وَذَكَرَ لَهُ الصَّدَقَ وَالْإِخْلَاصَ؛ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: «بِهَذَا أَرْتَفَعَ الْقَوْمُ»); أي: بهذا أرتفع مَنْ سبق من الصدر الأول.

فلجلالة ما أصابوه من الصدق والإخلاص نالوا المرتبة العالية، فإن الله عزَّ وجلَّ أمرنا بالإخلاص، وأمرنا بالصدق، فمَنْ صار له نصيبٌ وافرٌ منهما أرتفع، ومَنْ فَقَدَ الإخلاص والصدق أضع، وعلى قدر ما يكون عنده منهما وما يُفقد منها؛ تكون رفعة العبد وضعته. وأحسن ما قيل في الفرق بين الإخلاص والصدق: أن الإخلاص هو توحيد المراد، والصدق هو توحيد الإرداة. ذكره ابن القيم وغيره.

وإلى ذلك أشرت بقولي:

وَمُخْلِصٌ مُوَحِّدٌ مُرَادَهُ وَالصَّدَقُ فِي تَوْحِيدِهِ الْإِرَادَةَ

فيكون العبد مُخْلِصًا إِذَا وَحَّدَ الْمُرَادَ، بَأَلَّا يَكُونُ لَهُ مَقْصُودٌ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِعَمَلِهِ سِوَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَلَا يَنَازِعُهُ مَرَادٌ آخَرَ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِمَا يَعْمَلُ.

وإذا توجه العبد إلى الله عزَّ وجلَّ فكان هو مراده حصَّص الإخلاص، ولزمه أن يتبغى الصدق بأن يُجَرِّد تلك الإرادة التي يتوجه بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا تكون إرادته مقطوعة أو ممزوجة بمشاركة شيء في توجهه إلى ذلك المراد؛ فمثلاً: مَنْ يُتَوَجَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتَوَجَّهَ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَتَوَجَّهَ آخَرَ إِلَى وَثْنٍ مِنَ الْأَوْثَانِ، فَهَذَا وَهَذَا كِلَاهُمَا مُرَادٌ، وَيَتَمَيَّزُ الْمَخْلِصُ بِأَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا سِوَاهُ، فَإِذَا تَوَجَّهَ الْمَخْلِصُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا فِي تَوَجُّهِهِ، بِأَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْإِرَادَةُ مَجْمُوعَةً عَلَى ذَلِكَ الْمُرَادِ، فَلَا

تُخَلِّطُ تِلْكَ الْإِرَادَةَ بِشَيْءٍ آخَرَ يُضْعِفُ سَيْرَهَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا يُنَالُ عَلَى قَدْرِ الْإِخْلَاصِ فَقَالَ: **(وَإِنَّمَا يَنَالُ الْمَرْءُ الْعِلْمَ عَلَى قَدْرِ إِخْلَاصِهِ)**، وَفِي الْمَأْثُورِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا يَحْفَظُ الْمَرْءُ عَلَى قَدْرِ نِيَّتِهِ». رَوَاهُ أَبُو عَسَاكِرٍ وَغَيْرُهُ؛ أَيُّ: يُحْصِلُ الْعَبْدُ قُوَّةَ الْحِفْظِ عَلَى قَدْرِ مَا لَهُ مِنَ النِّيَّةِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ يُقَالُ فِي الْفَهْمِ وَغَيْرِهِ مِنْ آلَةِ الْعِلْمِ الَّتِي تُبَلِّغُ الْعَبْدَ إِلَيْهَا.

ثُمَّ نَعَتِ الْمَصْنُفَ مَا يَتَحَقَّقُ بِهِ الْإِخْلَاصُ فِي الْعِلْمِ بِأَنَّ بَيْنَ أَنْ نِيَّةَ الْعِلْمِ تَقُومَ **(عَلَى أَرْبَعَةٍ أُصُولٍ)**:

(الْأَوَّلُ: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ نَفْسِهِ؛ بِتَعْرِيفِهَا مَا عَلَيْهَا مِنَ الْعِبُودِيَّاتِ، وَإِيقَافِهَا عَلَى مَقَاصِدِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ)؛ فَيَلْتَمِسُ طَالِبُ الْعِلْمِ الْعِلْمَ لِيُعْرِفَ نَفْسَهُ بِمَا عَلَيْهِ مِنْ عِبُودِيَّةٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُوقِفُهَا عَلَى مَا يُقْصَدُ مِنْ أَمْرِ أَمْرِهِ بِالشَّرْعِ أَوْ نَهْيِ نَهَاةٍ عَنْهُ.

و**(الثَّانِي: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ الْخَلْقِ؛ بِتَعْلِيمِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ لِمَا فِيهِ صَلَاحٌ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ)**.
و**(الثَّلَاثُ: إِحْيَاءُ الْعِلْمِ)** - أَيُّ: بِقَاوِمِهِ قَوِيًّا ظَاهِرًا فِي النَّاسِ -، **(وَحِفْظُهُ مِنَ الضَّيَاعِ)** - أَيُّ: مِنَ الْفَقْدِ وَالزَّوَالِ.

و**(الرَّابِعُ: الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ)**.

فَهَذِهِ الْأُصُولُ الْأَرْبَعَةُ هِيَ أَمَّهَاتٌ مَا يُطَلَّبُ مِنَ النِّيَّةِ فِي الْعِلْمِ، وَمَا يُذَكَّرُ فِي كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ سِوَاهَا فَإِنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ.

ثُمَّ ذَكَرَ الْحَالَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا السَّلَفُ فِي الْإِخْلَاصِ، فَقَالَ: **(وَلَقَدْ كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَخَافُونَ فَوَاتَ الْإِخْلَاصِ فِي طَلَبِهِمُ الْعِلْمِ، فَيَتَوَرَّعُونَ عَنِ ادِّعَائِهِ، لَا أَنَّهُمْ لَمْ يُحَقِّقُوهُ فِي قُلُوبِهِمْ)**؛ فَلشِدَّةَ خَوْفِهِمْ مِنْ فَوَاتِ الْإِخْلَاصِ لَمْ يَكُونُوا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَخْلَصُوا فِي الْعِلْمِ تَوَرُّعًا.

وَمِنْ شَوَاهِدِهِ: أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ سُئِلَ: **(هَلْ طَلَبْتَ الْعِلْمَ لِلَّهِ؟)**، فَقَالَ: **(لِلَّهِ! عَزِيزٌ)**؛ أَيُّ: أَنْ

يكون طلبي خالصاً لله شيء يشقُّ عليَّ أدعأؤه، فعزير عليّ - أي: شاقُّ عليّ، بعيدٌ عني - أن أدعي أنني طلبتُ العلم لله، قال: **(«وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ حُبِّبَ إِلَيَّ فَطَلَبْتُهُ»)**؛ أي: كان مُبتدأ رغبته في العلم أنه أحبَّ العلم فطلبه، ثمَّ حدثتِ النية الصالحة بعدُ، فإنَّ العلم من المراتب التي تُطلب لمحبتها عند كثيرين، وقد ذكر ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالى في «قاعدة» له منشورة في مجموعة بحوثٍ مهداةٍ إلى محمود شاكر رَحِمَهُ اللهُ: أنَّ العلم قد يكون طلبه من جنس المباح إذا كان طالبه طلبه لأجل محبته فقط، وهذا شيء صار غالباً على الناس بأخرة؛ فما يُسمى (متعة القراءة) هي من جنس المباح، فإنه تمتعٌ للنفس بمفرداتٍ يدركها القلب، فيؤنس بها لذَّةً، وهذا من جنس تناول المحبوبات من المطعومات التي يأكلها فيجد حلاوتها ولذتها في فمه، فكذلك متعة القراءة هي من جنس هذا، فإنَّ القلب يجد متعةً ولذَّةً يكون بها هذا المطلوب مباحاً.

ولهذا تجد أن هذه المعاني خرجت من غير الراسخين في العلم، فإنَّ الراسخ في العلم لا يدعوك إلى متعة القراءة، وإنما يدعوك إلى طلب العلم الذي يُقربك إلى الله سبحانه وتعالى، لكن ينبغي أن تعرف أن الحال التي يكون عليها هؤلاء وكثير من الناس هي محبة العلم لذاته، لا لإرادة التقرب به إلى الله سبحانه وتعالى، وهي حالٌ تعرض كثيراً عند ابتداء الطلب، فعامة من يطلب العلم يطلبه محبةً له، فإنَّ معنى التقرب يكون ضعيفاً في القلوب غالباً عند الابتداء ولاسيما مع صغر السن، فإذا مضى فيه صاحبه رجعت النية إلى إخلاصه لله سبحانه وتعالى، وهذا معنى قول مجاهد وغيره: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى الله أن يكون إلا له»؛ أي: طلبنا العلم بغير نية نريد بها التقرب، ثمَّ حملنا العلم على أن نريد به التقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

ثمَّ قال: **(وَمَنْ صَبَحَ الْإِخْلَاصَ فَاتَهُ عِلْمٌ كَثِيرٌ، وَخَيْرٌ وَفِيرٌ).**

(وَيَنْبَغِي لِقَاصِدِ السَّلَامَةِ أَنْ يَتَفَقَّدَ هَذَا الْأَصْلَ - وَهُوَ الْإِخْلَاصُ - فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا،

دَقِيقَهَا وَجَلِيلَهَا) - أي: ما عَظُمَ منها وما صَغُرَ، فالدَّقِيقُ: أَسْمٌ لما صَغُرَ، والجَلِيلُ: أَسْمٌ لما عَظُمَ - **(سِرُّهَا وَعَلَنِهَا)** - أي: ما خَفِيَ منها وما ظَهَرَ، فالسَّرُّ: أَسْمٌ لما خَفِيَ، والعلنُ: أَسْمٌ لما ظَهَرَ.

فالعبد مأمورٌ أن يتفقد الإخلاص في أعماله كلها؛ لأنَّ تَفَقُّدَ الإخلاص بتبَّعه والتَّغَيُّبَ عنه يُبَلِّغُ العبدَ جادَّةَ السَّلامَةِ، والغفلةُ عن ذلك تورده المهالك.

قال: **(وَيَحْمِلُ عَلَى هَذَا التَّفَقُّدِ شِدَّةُ مُعَالَجَةِ النِّيَّةِ)**؛ أي: شِدَّةُ ما يعانیه ويلاقيه العبد في أمر نِيَّتِهِ.

(قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «مَا عَاجَتْ شَيْئًا») - أي: ما كابدتُ عناءً في المعالجة - **(«أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي»)**، وعلل ذلك بقوله: **(«لِأَنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ»)**، وتقلَّب النِّيَّةُ هو تحوُّلها عن وجهها، لا إلى وجهٍ واحدٍ، بل إلى وجوهٍ متعدِّدةٍ، فإنَّ العبد تكون له نِيَّةٌ إذا شرع في عملٍ، ثمَّ تنقلب تلك النِّيَّةُ إلى معنَى آخر، ثمَّ تنقلب تلك النِّيَّةُ إلى معنَى ثانٍ لم يكن في قلبه لما أبتدأ عمله؛ فمن صفات النِّيَّةِ أنَّها متقلِّبةٌ.

وموجب تقلُّبها هو أنَّ محلَّها القلب، والقلب مُتَقَلِّبٌ، ولما كان محلُّ النِّيَّةِ متقلِّبًا صار التَّقَلُّبُ وصفًا لها، قال الأوَّل:

قَدْ سُمِّيَ الْقَلْبُ قَلْبًا مِنْ تَقَلُّبِهِ فَاحْذَرِ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَحْوِيلِ

أي: إنَّها سُمِّيَ القلبُ قلبًا لأنَّه يتقلَّب، فينبغي أن تحرص على قلبك من القلب والتَّحوِيلِ. ومن اعتبر هذا التَّقَلُّبَ في النَّاسِ ممَّا جاء خبره في القرآن والسُّنَّةِ وآثار السَّلفِ أو ما يراه العبد من معاناة أحوالهم بدا له ظاهرًا شِدَّةُ هَذَا التَّقَلُّبِ الَّذِي منشؤه من القلب، فمن حَفِظَ قلبه ثبت، ومن لم يحفظ قلبه تقلَّب به قلبه، وربَّما أودى به تقلُّبه في مهلكةٍ عظيمةٍ.

ثمَّ ذكر أمرًا أشدَّ، فقال: **(بل قَالَ سُلَيْمَانُ الْهَاشِمِيُّ: «رُبَّمَا أَحَدْتُ بِحَدِيثِ وَاحِدٍ وَلِي نِيَّةٌ، فَإِذَا أَتَيْتُ عَلَى بَعْضِهِ»)** - أي: فإذا ذكرتُ بعضه - **(«تَغَيَّرَتِ نِيَّتِي»)**؛ أي: تحوَّلت نِيَّتِي؛

كإنسانٍ شرع يذكر حديثًا، فقال: «إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئٍ ما نوى»، فبدت له نيةٌ أخرى في حُسن ذكره اللَّفْظَ المتَّفَقَ عليه، فلفظ «إنما الأعمال بالنيَّات» للبخاريٍّ وحده، وأمَّا لفظ «إنما الأعمال بالنية» فهو للبخاريٍّ ومسلمٍ، فتجددت له نيةٌ لم تكن في قلبه لما حدَّث بهذا الحديث تعليمًا، أو وعظًا وإرشادًا.

قال: («فَإِذَا الْحَدِيثُ الْوَاحِدُ يَحْتَاجُ إِلَى نِيَّاتٍ»); أي: إذا الحديث الواحد الذي يذكره العبد يحتاج إلى نياتٍ تتجدد بالردِّ إلى النية الأولى، فهو يُحدِّث بالحديث وله نيةٌ صالحةٌ، ثمَّ تعرِّض نيةً مردولةً، ثم يرده إلى النية الصالحة، ثمَّ تعرِّض نيةً مردولةً أخرى، فيرده إلى النية الصالحة، فيكون الحديث الواحد محتاجًا إلى نياتٍ متعدِّدة؛ كالذي ذكرته آنفًا من لفظ «الصَّحيحين» وهو: «الأعمال بالنية»؛ فإنَّ العبد قد يزهو بحُسن ضبطه للفظ «الصَّحيحين»، ثمَّ يمضي ويذكر بعد ذلك الجملة الأخيرة من الحديث: «فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ»، ويذكر حينئذٍ أنَّ البخاريَّ أوردَه في أوَّل موضعٍ منقوصًا من هذه الجملة، فيحصل له من نيةٍ أخرى من الزُّهُوِّ أو الإعجاب بنفسه أو غير ذلك ما يوقعه في مهلكةٍ، فالعبد يحتاج دائمًا إلى تصحيح النية.

وتصحيح النية هو: رُدُّها إلى المأمور به شرعًا إذا عرض لها ما يُغيِّرُها أو يفسدها.

وقولنا: (ما يُغيِّرُها)؛ أي: يُخرجها من نية التَّقَرُّبِ إلى الإباحة.

وقولنا: (يُفسدها)؛ أي: يُخرجها من نية التَّقَرُّبِ إلى نية محرمة شرعًا.

وهذا أصلٌ عظيمٌ؛ فالعبد دومًا مُفْتَقِرٌ أشدَّ الافتقار إلى تصحيح نيَّته في أعماله؛ لأنَّ تلك النية تتقلَّب عليه، وهذا التقلُّب تارة يكون بعارضٍ يُغيِّرُها، وتارةً أخرى بعارضٍ يفسدها. فالعارض الذي يُغيِّرُها هو الذي يُخرجها من قصد الطَّاعة إلى مجرد المباح، والعارض الذي يفسدها هو الذي ينقلها من قصد الطَّاعة إلى مقاصد خبيثة؛ كالاستعلاء على النَّاسِ، أو الزُّهُوِّ، أو الرِّياء، أو السُّمعة، أو الكِبَر، أو العُجب، أو غير ذلك من النِّيَّاتِ الفاسدة.

قال المصنف وفقه الله :

المَعْقِدُ الثَّلَاثُ

جَمْعُ هِمَّةِ النَّفْسِ عَلَيْهِ

تُجْمَعُ الْهِمَّةُ عَلَى الْمَطْلُوبِ بِتَفْقِيدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: الْحِرْصُ عَلَى مَا يَنْفَعُ، فَتَمَى وَفَقَّ الْعَبْدُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ حَرَصَ عَلَيْهِ.

ثَانِيهَا: الْاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي تَحْصِيلِهِ.

ثَالِثُهَا: عَدَمُ الْعَجْزِ عَنِ بُلُوغِ الْبُغْيَةِ مِنْهُ.

وَقَدْ جُمِعَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَأَسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ».

قال الجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا طَلَبَ أَحَدٌ شَيْئًا بِجِدِّ وَصِدْقٍ إِلَّا نَالَهُ، فَإِنْ لَمْ يَنَلْهُ كُلَّهُ نَالَ بَعْضَهُ».

قال أَبُو الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الْفَوَائِدُ»: «إِذَا طَلَعَ نَجْمُ الْهِمَّةِ فِي ظِلَامِ لَيْلِ الْبَطَالَةِ،

وَرَدِفَهُ قَمَرُ الْعَزِيمَةِ؛ أَشْرَقَتْ أَرْضُ الْقَلْبِ بِنُورِ رَبِّهَا».

وَإِنَّ مِمَّا يُعْلِي الْهِمَّةَ وَيَسْمُو بِالنَّفْسِ: أَعْتِبَارَ حَالِ مَنْ سَبَقَ، وَتَعَرُّفَ هِمَمِ الْقَوْمِ الْمَاضِينَ.

فَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ كَانَ وَهُوَ فِي الصَّبَا رَبِّمَا أَرَادَ الْخُرُوجَ قَبْلَ الْفَجْرِ إِلَى حَلَقِ

الشُّيُوخِ، فَتَأَخَذُ أُمُّهُ بِثِيَابِهِ وَتَقُولُ رَحْمَةً بِهِ: «حَتَّى يُؤَدِّنَ النَّاسُ أَوْ يُصْبِحُوا».

وَقَرَأَ الْخَطِيبُ «صَحِيحَ الْبُخَارِيِّ» كُلَّهُ عَلَى إِسْمَاعِيلِ الْحِيرِيِّ فِي ثَلَاثَةِ مَجَالِسَ؛ أَثْنَانِ مِنْهَا

فِي لَيْلَتَيْنِ مِنْ وَقْتِ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَالْيَوْمَ الثَّلَاثَ مِنْ ضَحْوَةِ النَّهَارِ إِلَى

صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، وَمِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ.

وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ التَّبَّانِ أَوَّلَ ابْتِدَائِهِ يَدْرُسُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَكَانَتْ أُمُّهُ تَرْحُمُهُ وَتَنْهَاهُ عَنِ
الْقِرَاءَةِ بِاللَّيْلِ، فَكَانَ يَأْخُذُ الْمِصْبَاحَ وَيَجْعَلُهُ تَحْتَ الْجُفْنَةِ - شَيْءٍ مِنَ الْإِنْيَةِ
الْعَظِيمَةِ - وَيَتَظَاهَرُ بِالنَّوْمِ، فَإِذَا رَقَدَتْ أَخْرَجَ الْمِصْبَاحَ وَأَقْبَلَ عَلَى الدَّرْسِ.
فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ عَلَى الثَّرَى ثَابِتَةً، وَهَامَةٌ هِمَّتِهِ فَوْقَ الثَّرِيَّا سَامِقَةً، وَلَا تَكُنْ شَابَّ الْبَدَنِ
أَشْيَبَ الْهِمَّةِ؛ فَإِنَّ هِمَّةَ الصَّادِقِ لَا تَشِيْبُ.

كَانَ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ - أَحَدُ أَذْكِيَاءِ الْعَالَمِ مِنْ فُقَهَاءِ الْحَنَابِلَةِ - يُنْشِدُ وَهُوَ فِي الثَّمَانِينَ:
مَا شَابَّ عَزْمِي وَلَا حَزْمِي وَلَا خُلُقِي وَلَا لَائِي وَلَا دِينِي وَلَا كَرْمِي
وَإِنَّمَا أَعْتَاصُ شَعْرِي غَيْرَ صَبْعَتِهِ وَالشَّيْبُ فِي الشَّعْرِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي الْهِمَمِ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

ذكر المصنّف وَّفَّقَهُ اللهُ معقداً ثالثاً من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: (جَمْعُ هِمَّةِ النَّفْسِ عَلَيْهِ).

وَبَيَّنَ كَيْفِيَّةَ جَمْعِ الْهِمَّةِ عَلَى الْعِلْمِ فَقَالَ: (تُجْمَعُ الْهِمَّةُ عَلَى الْمَطْلُوبِ بِتَفْقُدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: الْحِرْصُ عَلَى مَا يَنْفَعُ، فَتَمَى وَفَّقَ الْعَبْدُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ حِرْصَ عَلَيْهِ.

ثَانِيهَا: الْاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي تَحْصِيلِهِ.

ثَالِثُهَا: عَدَمُ الْعَجْزِ عَنِ بُلُوغِ الْبُغْيَةِ مِنْهُ).

وَهَذَا أَصْلٌ فِي كَيْفِيَّةِ عُلُوِّ الْهِمَّةِ فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ، فَإِنَّهُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ عَالِي الْهِمَّةِ فِي شَيْءٍ

يَطْلُبُهُ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ وَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَفَقَّدَ هَذِهِ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ:

فأولها: أن يحرص على ما ينفعه، بأن يجعل قبلة نفسه الأمور النافعة، (**فَمَتَى وَفَّقَ الْعَبْدُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ حَرَصَ عَلَيْهِ**)؛ فإن وصول النفس إلى الأمر النافع الذي تجده أثره يدعوها إلى الحرص عليه.

فمما يجعل همّتك عاليةً: أن تتوجّه إلى مطلوبٍ نافعٍ، ثمّ تتلبّس بالحرص عليه.
وثانيها: (**الاستعانة بالله عزّ وجلّ في تحصيله**)؛ لأنّه لا حول للعبد ولا قوّة على شيءٍ من مقاصده في نيلها إلاّ بإعانة الله عزّ وجلّ له؛ فإنّ العبد عاجزٌ والله قادرٌ، والعبد ضعيفٌ والله قويٌّ، فلا سبيل إلى إقدار هذا العاجز وتقوية ذلك الضعيف إلاّ بمعونةٍ ممّن له القدرة الكاملة، والقوّة البالغة، وهو الله سبحانه وتعالى، فإذا فقد العبد هذا العون لم يكن له قدرةٌ على تحصيل مطالبه، قال الشاعر:

إذا لم يكن من الله عونٌ للفتى فأول ما يجني عليه أجهاده
وهذا هو معنى قول العبد في كلّ صلاةٍ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة]؛ فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة]؛ أي: نطلب معونتك في كلّ أمرٍ نطلبه، فنستعين بالله على تلك المطلوبات.

وثالثها: (**عدم العجز عن بلوغ البغية منه**)؛ أي: عدم حصول عجزٍ في النفس عن بلوغ العبد مقصوده من ذلك المطلوب، فالبغية من الشيء هي: المقصود والطلبه منه.
والعجز: عرض للروح والنفس فيوهنها، بخلاف الكسل؛ فإنّ الكسل: عرض يعرض للبدن فيوهنه.

فالفرق بين العجز والكسل:

أنّ العجز: محله الروح والنفس.

والكسل: محله البدن.

ذكره ابن القيم رحمه الله في جماعةٍ آخرين.

ثم ذكر المصنّف أن هذه الأمور الثلاثة وقعت في نسقٍ واحدٍ في حديثٍ نبويٍّ، وهو قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(«أَحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَأَسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ»)**؛ فجمّله الثلاث هي دلائل تلك الأمور واحداً واحداً.

فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(«أَحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ»)** دليل الأول.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(«وَأَسْتَعِنْ بِاللَّهِ»)** دليل الثاني.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(«وَلَا تَعْجِزْ»)** ^(١) دليل الثالث.

ثم ذكر قول **(الجنيد رحمه الله: «مَا طَلَبَ أَحَدٌ شَيْئًا بِجِدٍّ وَصِدْقٍ إِلَّا نَالَهُ، فَإِنْ لَمْ يَنْلُهُ كُلَّهُ نَالَ بَعْضَهُ»)**؛ فالعبد إذا قارن طلبه الجِدُّ والصدق نال مطلوبه، ولو قُدِّرَ أنه لا ينال مطلوبه كاملاً فإنه ينال منه حظاً وافراً.

(قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «الفوائد»: «إِذَا طَلَعَ نَجْمُ الْهَمَّةِ فِي ظِلَامِ لَيْلِ الْبَطَالَةِ») - والبطالة هي الفساد؛ فالفساد والاشتغال بما لا ينفع يُسمّى بطالةً، فإنَّ العبد البطال هو المشتغل بما لا ينفعه، وأعظم ما لا ينفعه هو: ما يفسدُه إذا اشتغل به - **(«وَرَدِفَهُ»)** - يعني: تبعه بعده - **(«قَمَرُ الْعَزِيمَةِ؛ أَشْرَقَتْ أَرْضُ الْقَلْبِ بِنُورِ رَبِّهَا»)**؛ أي: إذا اجتمعتِ الهمة والعزيمة حصل للقلب النور والكمال.

ثم قال: **(وَإِنَّ مِمَّا يُعْلِي الْهَمَّةَ وَيَسْمُو بِالنَّفْسِ: أَعْتِبَارَ حَالِ مَنْ سَبَقَ، وَتَعَرُّفَ هِمَمِ الْقَوْمِ الْهَاضِمِينَ)**؛ فمما تكون به الهمة عاليةً والنفس ساميةً: أن يعتبر العبد أحوال السلف الذين تقدّموا، فإنَّ الاطلاع على السّير من أنفع ما يكون في اقتباس العلم، قال أبو الفرج ابن الجوزي: **(«لا أجد شيئاً أنفع لطالب العلم من إدمان النظر في سير السلف»)**. أنتهى كلامه.

(١) بكسر الجيم، وتفتح أيضاً؛ فيقال: «ولا تعجز»، «ولا تعجز».

وذكر ابن مفلح رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ مَنْفَعَةَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهَ قَلِيلَةٌ مَا لَمْ يُقْرَنَ بِالرَّقَائِقِ وَقِرَاءَةِ سِيرِ السَّلَفِ؛ فَالْعَبْدُ لَا يَنْتَفِعُ بِعِلْمِهِ مَا لَمْ يَمِزْجْهُ بِالرَّقَائِقِ وَكَثْرَةَ النَّظَرِ فِي سِيرِ الْمَاضِينَ، فَإِنَّ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ يَعْمَلَانِ فِي النَّفْسِ عَمَلًا عَظِيمًا، فَفَسَادُ النَّفْسِ أَوْ ضَعْفُهَا يُدْفَعُ بِهِذَا وَهَذَا.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ فِي فَصْلِ فِي «صَيْدِ الْخَاطِرِ»: «تَأَمَّلْتُ الْعِلْمَ وَالْمِيلَ إِلَيْهِ وَالتَّشَاغُلَ بِهِ، فَإِذَا هُوَ يَقْوِي الْقَلْبَ قُوَّةً تَمِيلُ بِهِ إِلَى نَوْعٍ قَسَاوَةٍ، فَإِنِّي أَسْمَعُ الْحَدِيثَ أَرْجُو أَنْ أَرْوِيَهُ، وَأَبْتَدِئُ بِالتَّصْنِيفِ أَرْجُو أَنْ أُتِمَّهُ، وَلَوْ لَا قُوَّةَ الْقَلْبِ وَطُولَ الْأَمَلِ لَمَا وَقَعَ هَذَا»، ثُمَّ ذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ: أَنَّ النَّافِعَ لِلْقَلْبِ الْإِشْتِغَالُ بِطَلْبِ الْعِلْمِ، مَعَ تَلْذِيعِ النَّفْسِ بِأَنْوَاعِ الْمَرْقَّقَاتِ تَلْذِيعًا لَا يُخْرِجُهَا عَنْ كِمَالِ التَّشَاغُلِ بِالْعِلْمِ، فَمَا تَحْصُلُ بِهِ رَقَّةَ الْقَلْبِ مِنْ زِيَارَةِ الصَّالِحِينَ أَوْ شُهُودِ الْجَنَائِزِ أَوْ زِيَارَةِ الْمَقَابِرِ، أَوْ قِيَامِ اللَّيْلِ، أَوْ قِرَاءَةِ سِيرِ السَّلَفِ = كُلُّ هَذَا مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي تُطَلَّبُ فِي أَقْتِبَاسِ الْعِلْمِ.

وَمِنْ أَسْبَابِ الْإِنْقِطَاعِ عَنِ طَلْبِ الْعِلْمِ فَوَاتُ هَذِهِ الْمَعَانِي مِنْ طُلَّابِهِ فَتَجِدُ أَحَدَنَا يَشْتَغِلُ بِطَلْبِ الْعِلْمِ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَهُ حِظٌّ مِنْ تِلْكَ الْمَرْقَّقَاتِ، وَإِذَا سَبَرَتْ حَالَهُ فِي أَقْتِبَاسِ عِلْمٍ يَدُلُّهُ عَلَيْهَا وَجِدَّتْهُ يَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الْعُلُومِ نَظْرًا يُنْزِلُهَا بِهَا عَنْ رَتْبَتِهَا، فَإِذَا ذُكِرَ لَهُ عِلْمُ السَّيْرِ، أَوْ عِلْمُ السَّيْرِ وَالتَّرَاجِمِ، أَوْ عِلْمُ التَّارِيخِ، أَوْ عِلْمُ أَحْوَالِ الْقَلْبِ، أَوْ عِلْمُ تَهْدِيبِ الْأَخْلَاقِ = رَأَى أَنَّ هَذِهِ عُلُومٌ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَلَقُّقٍ عَنِ شَيْخٍ، فَهُوَ يُفَرِّطُ فِي تَلْقِيهَا تَلْقِيًا صَحِيحًا، ثُمَّ يُفَرِّطُ فِي الْقِرَاءَةِ فِيهَا، ثُمَّ يُفَرِّطُ فِي وُجُودِهَا فِي نَفْسِهِ أَمْتِثَالًا، فَلَا يُحْصِلُ الْعِلْمَ، وَلَا يَنْفَعُ الْعِلْمَ إِلَّا كَمَا ذَكَرَ لَكَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ وَأَبْنُ مَفْلِحٍ مِنْ أَحْتِيَاجِ الْعَبْدِ إِلَى النَّظَرِ فِي سِيرِ السَّلَفِ وَتَرْقِيقِ الْقَلْبِ بِأَنْوَاعِ الْمَرْقَّقَاتِ.

ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ شَوَاهِدِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مَنْ مَضَى فِي عُلُومِهِمْ مَا يَقْوِي النَّفْسَ وَيُذَكِّي هَمَّتَهَا فِي طَلْبِ اللَّحَاقِ بِهِمْ، فَقَالَ: (فَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ كَانَ وَهُوَ فِي الصَّبَا) - أَي: فِي مَبْتَدَأِ عُمُرِهِ - (رُبَّمَا أَرَادَ الْخُرُوجَ قَبْلَ الْفَجْرِ إِلَى حَلْقِ الشُّيُوخِ، فَتَأْخُذُ أُمُّهُ بِبَيْتَابِهِ وَتَقُولُ رَحْمَةً بِهِ:

«حَتَّى يُؤذِّنَ النَّاسُ أَوْ يُصْبِحُوا»؛ أي: أصبر حتى يؤذِّنَ النَّاسُ أو يصبحوا، فإذا أذَّنوا أو أسفر الصَّباح وبان فاخرج إلى حلق الشُّيوخ.

(وَقَرَأَ الْخَطِيبُ «صَحِيحَ الْبُخَارِيِّ» كُلَّهُ عَلَى إِسْمَاعِيلَ الْحِيرِيِّ فِي ثَلَاثَةِ مَجَالِسَ؛ أَتْنَانٍ مِنْهَا فِي لَيْلَتَيْنِ مِنْ وَقْتِ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَالْيَوْمَ الثَّلَاثَ مِنْ ضُحُوَّةِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، وَمِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ)، فأبى هَمَّةٌ كانت لهذا الرَّجل أحرقتَه حتى صَبَّرته، فإنَّ الهَمَّةَ تُحرق النَّفس فتشرق بها، فإنَّ الهَمَّةَ كالنَّار في النَّفس، ومن شدَّة ما يجد المُحترق بها تجعله قائماً بهذا الشَّأن، وهذا معنى قول بعضهم: «مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بَدَايَةٌ مُحْرِقَةً؛ لَمْ تَكُنْ لَهُ نِهَآيَةٌ مُشْرِقَةً»؛ أي: مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَبْتَدَأِ اقْتِبَاسِهِ الْعِلْمَ ذَا تَحْرِقٍ وَحِرْصٍ فِي طَلْبِ مَا يَرِيدُهُ فَإِنَّهُ لَا يَنَالُ مِنْهُ مَقْصُودَهُ حَتَّى يَكُونَ كَالشَّمْسِ فِي النَّاسِ الَّتِي تُشْرِقُ بَيْنَهُمْ فَتَنْفَعُهُ، وَتَجِدُ فِي تَرَاجُمِ بَعْضِهِمْ قَوْلَهُمْ: «إِنَّهُ كَانَ كَشَعْلَةِ نَارٍ»؛ أي: صَاحِبُ هَمَّةٍ^(١)، فَهَذِهِ هِيَ الْحَالُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْخَطِيبُ حَتَّى حَمَلَتْهُ عَلَى هَذَا الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ.

قال: (وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ التَّبَّانِ أَوَّلَ ابْتِدَائِهِ) - أي: فِي أَوَّلِ أَخْذِهِ الْعِلْمَ - (يَدْرُسُ اللَّيْلَ كُلَّهُ) - أي: يُمضي اللَّيْلَ فِي دِرَاسَةِ الْعِلْمِ -، وَالْمَقْصُودُ بِ(الدَّرَاسَةِ): نَظْرُهُ فِيهَا أَخْذَهُ فِي يَوْمِهِ مِنَ الْعِلْمِ.

قال: (فَكَانَتْ أُمُّهُ تَرْحَمُهُ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْقِرَاءَةِ بِاللَّيْلِ) حَتَّى لَا يَذْهَبَ بِصَرِهِ، (فَكَانَ يَأْخُذُ الْمِصْبَاحَ وَيَجْعَلُهُ تَحْتَ الْجَفْنَةِ - شَيْءٍ مِنَ الْإِنْيَةِ الْعَظِيمَةِ - وَيَتَظَاهَرُ بِالنَّوْمِ) - أي: يَهَيِّئُ لِأُمِّهِ أَنَّهُ نَائِمٌ -، (فَإِذَا رَقَدَتْ أَخْرَجَ الْمِصْبَاحَ وَأَقْبَلَ عَلَى الدَّرْسِ)، وَلَا يَفْعَلُ هَذَا إِلَّا شَدِيدَ الْمَحَبَّةِ لِلْعِلْمِ؛ فَشَدِيدَ الْمَحَبَّةِ لِلْعِلْمِ يَطْلُبُ كُلَّ سَبِيلٍ إِلَى مَطْلُوبِهِ، فَهُوَ فِي اللَّيْلِ يَسْهَرُ وَيَنْظُرُ فِي الْكُتُبِ عَلَى ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ، وَرَبَّمَا غَالَبَهُ مِحْبٌ - كَأَمٍّ أَوْ زَوْجٍ - فَهَادِنَهُ مِصَالِحَةً

(١) والعوامُّ عندنا يقولون: فلانٌ يتلهَّب، أو فلانٌ شعلةٌ، يعني: من شدَّة النَّشاط الَّذِي يجده.

وخادعه بالانسلاخ إلى العلم مرةً أخرى، وهذه الأحوال لا تصدر إلا ممن يتقطع قلبه على محبة العلم.

لَقِيتُ الشَّيْخَ جَعْفَرَ العَتَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ - عَضُوهُ هَيْئَةً كِبَارِ العُلَمَاءِ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِهَا -، فَسَأَلْتُهُ عَنْ حَالِهِ فِي الطَّلَبِ، فَذَكَرَ أَشْيَاءَ مِنْهَا: أَنَّ أَكْثَرَ مَا قَرَأَهُ مِنَ العِلْمِ كَانَ عَلَى نُورِ القَمَرِ، قَالَ: لِأَنَّ الرِّيْتَ كَانَ قَلِيلًا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَلَا كَهَرَبَاءَ، فَكُنْتُ أُسْتَعِينُ بِنُورِ القَمَرِ عَلَى مُطَالَعَةِ الكُتُبِ فِي اللَّيْلِ.

وَلَقِيتُ رَجُلًا مِنَ العُلَمَاءِ أَسْمُهُ شَبِيرُ عَطَا بْنِ العَلَامَةِ حَلِيمِ عَطَا رَحِمَهُ اللهُ - وَأَبُوهُ رَجُلٌ كَبِيرٌ فِي العِلْمِ وَإِنْ جَهَلَهُ النَّاسُ، حَتَّى قَالَ فِيهِ مَسْعُودُ النَّدَوِيِّ: إِنِّي لَمْ أَرِ فِي العَرَبِ وَلَا العَجَمِ أَحَدًا أَعْلَمَ بِكَلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَابْنِ القَيْمِ مِنْ حَلِيمِ عَطَا... وله شواهدٌ ليس هذا مقام ذكرها، وَخَلَفَهُ بَعْدَهُ ابْنُ لَهُ أَسْمُهُ شَبِيرُ عَطَا -، وَكَانَ شَدِيدَ المَحَبَّةِ لِلْعِلْمِ، مُكْثِرًا مِنَ القِرَاءَةِ، حَتَّى أَنَّهُ كَانَ فِي شَبَابِهِ يَقْرَأُ فِي اليَوْمِ الوَاحِدِ ثَمَانِيَةَ صَفْحَةٍ، فَقُلْتُ لَهُ: كَمْ قَرَأْتَ مِنَ الكُتُبِ؟ فَضَحِكَ وَقَالَ: لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَضْبِطَ لَكَ، لَكِنَّ الَّذِي قَرَأْتُهُ عَلَى نُورِ القَمَرِ أَلْفِي مَجْلَدًا!!

وهذه حال لا يفعلها إلا من تقطع قلبه على محبة العلم.

قال بعد: (فَكُنْ رَجُلًا رَجُلُهُ عَلَى الثَّرَى ثَابِتَةً) - والثرى: أسمٌ لوجه الأرض وترابها -، (وَهَامَةٌ هَمَّتِهِ فَوْقَ الثَّرِيَا سَامِقَةٌ) - والثرياً: نجمٌ مرتفعٌ في السماء -؛ فأمر أحدنا أن يكون رجلاً رجله - أي: بدنه - على الأرض؛ لأنه من أهلها، لَكِنَّ هَامَةً هَمَّتِهِ - يعني: رأس هَمَّتِهِ وأعلىها - فوق نجم الثرياً مرتفعاً.

(وَلَا تَكُنْ شَابًّا بَدَنُ أَشْيَبِ الهِمَّةِ)، وشابُّ البدن أشيب الهمة هو الذي يكون في عمره صغيراً، لَكِنَّ فِي هِمَّتِهِ وَهِنًا ضعيفاً، فتجده في قوَّة بدنه مفتول العضلات، متماسك القوى، ثمَّ إذا تَفَقَّدتْهُ فِي مَطْلُوبَاتِهِ وَجَدتْهُ ضَعِيفَ الهِمَّةِ، عاجزاً عن نيل مَطْلُوبَاتِهِ، فهذا شابُّ فِي الظَّاهِرِ أَشْيَبُ فِي البَاطِنِ.

والأشيبُ: أسم للرجل إذا خالطه الشيب، ولا يُقال: شايب، في أصحّ قولي أهل اللُغة.
قال: (فإنَّ هِمَّةَ الصَّادِقِ لَا تَشِيْبُ)؛ أي: مَنْ كَانَ صَادِقًا فِي إِرَادَتِهِ، فَإِنَّ هِمَّتَهُ تَبْقَى وَلَا تَتَغَيَّرُ.

وذكر من شواهد هذا: (كَانَ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ - أَحَدُ أَذْكَيَاءِ الْعَالَمِ مِنْ فَكْهَاءِ الْحَنَابِلَةِ - يُنْشِدُ وَهُوَ فِي الثَّمَانِينَ:

مَا شَابَ عَزْمِي وَلَا حَزْمِي وَلَا خُلُقِي وَلَا وَلَائِي وَلَا دِينِي وَلَا كَرَمِي
وَإِنَّمَا أَعْتَاَصُ شَعْرِي غَيْرَ صِبْغَتِهِ وَالشَّيْبُ فِي الشَّعْرِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي الْهِمَمِ

يعني: حقيقة ما صار عليه: أن بعض شعره تغير لونه، فأتخذ صبغة أخرى هي صبغة البياض.

ثم قال: (وَالشَّيْبُ فِي الشَّعْرِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي الْهِمَمِ)؛ فالشَّيْبُ فِي الشَّعْرِ هُوَ ضَعْفٌ فِي الْبَدَنِ، وَالشَّيْبُ فِي الْهِمَمِ هُوَ ضَعْفٌ فِي الرُّوحِ، فَرَبَّمَا كَانَ الْعَبْدُ ضَعِيفًا فِي بَدَنِهِ، قَوِيًّا فِي هِمَّتِهِ، وَرَبَّمَا كَانَ الْعَبْدُ قَوِيًّا فِي بَدَنِهِ، ضَعِيفًا فِي هِمَّتِهِ.

فالأول: أشيب البدن، شاب الهمة، والثاني: شاب البدن، أشيب الهمة.

وشواهد هذا في أحوال أهل العلم كثيرة، ومن أخبار أبي الفرج ابن الجوزي رحمه الله أنه طلب علم القراءات - الذي يحتاج إلى قوة ذهن - بعد الثمانين، وكان يأتي إلى حلقة المقرئ وأبنة يعززه - يعني: يقوده من ضعفه -، فمن كان شاب الروح فإن قواه لا تُفقد منه، حتى قوى الذاكرة، فربما تجد من هؤلاء من أبناء المائة يذكر لك الأحوال أفضل مما يذكره أبناء الأربعين والخمسين والستين؛ للقوة التي وهبها من قوة هيمته، وشدة تعلقه بالعلم حتى أنطبت هذه المعاني في قلبه، وأما أولئك فمع كونهم أقوى بدنا؛ إلا أن تلك المعاني لم تنطبع في قلوبهم ففاتهم إدراكها.

قال المصنف وفقه الله :

المعقد الرابع

صَرَفُ الْهِمَّةِ فِيهِ إِلَى عِلْمِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

إِنَّ كُلَّ عِلْمٍ نَافِعٍ مَرْدُهُ إِلَى كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَاقِي الْعُلُومِ إِمَّا خَادِمٌ لَهَا فَيُؤْخَذُ مِنْهُ مَا تَتَحَقَّقُ بِهِ الْخِدْمَةُ، أَوْ أَجْنَبِيٌّ عَنْهَا فَلَا يَضُرُّ الْجَهْلُ بِهِ.

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ عِيَاضِ الْيَحْصِبِيِّ فِي كِتَابِهِ «الإلماع»:

الْعِلْمُ فِي أَصْلَيْنِ لَا يَعْدُوهُمَا إِلَّا الْمُضِلُّ عَنِ الطَّرِيقِ اللَّاحِبِ

عِلْمُ الْكِتَابِ وَعِلْمُ الْآثَارِ الَّتِي قَدْ أُسْنِدَتْ عَنْ تَابِعٍ عَنْ صَاحِبِ

وَقَدْ كَانَ هَذَا هُوَ عِلْمُ السَّلَفِ - عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ - ثُمَّ كَثُرَ الْكَلَامُ بَعْدَهُمْ فِيمَا لَا يَنْفَعُ،

فَالْعِلْمُ فِي السَّلَفِ أَكْثَرُ وَالْكَلَامُ فِيمَنْ بَعْدَهُمْ أَكْثَرُ.

قَالَ حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ: قُلْتُ لِأَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: الْعِلْمُ الْيَوْمَ أَكْثَرُ أَوْ فِيمَا تَقَدَّمَ؟، فَقَالَ: «الْكَلامُ

الْيَوْمَ أَكْثَرُ، وَالْعِلْمُ فِيمَا تَقَدَّمَ أَكْثَرُ».



قال الشارح وفقه الله :

ذكر المصنف وفقه الله معقداً آخرًا من مقاعد تعظيم العلم؛ وهو: (صَرَفُ الْهِمَّةِ فِيهِ إِلَى

عِلْمِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ)؛ أي: إنفاقها في الطُّلبِ إلى علم القرآن والسُّنة؛ لأنَّ كُلَّ عِلْمٍ نَافِعٍ مَرْدُهُ

إِلَى كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالعلوم المبتوثة في الناس نوعان لا ثالث لهما:

أحدهما: علومٌ نافعةٌ.

والآخر: علومٌ غير نافعةٍ.

وما كان نافعاً من العلوم فإن مردهً إلى كلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصلاً أو فرعاً، فعلم الاعتقاد علم نافع، ومرده إلى كلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصلاً، فإن القرآن والسنة جاءا لتقرير ما يلزم العبد من الاعتقاد الصحيح في أصول الإيمان. وعلم الطب علم نافع فرعاً، فإن القرآن والسنة لم يُجْعَلَا لنعت طريق علم الطب، لكن أشتملا على ما يدل على أن هذا العلم علم ينتفع به الخلق؛ فكل علم نافع يُردُّ إلى كلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(وَبَاقِي الْعُلُومِ إِمَّا خَادِمٌ لَهَا فَيُؤْخَذُ مِنْهُ مَا تَحَقَّقَ بِهِ الْخِدْمَةُ، أَوْ أَجْنَبِيٌّ عَنْهَا فَلَا يَضُرُّ.

الجهلُ به)، فباقي العلوم سوى الكتاب والسنة نوعان:

أحدهما: علومٌ خادمةٌ للقرآن والسنة؛ كالنحو، وأصول الفقه، فيؤخذ منها ما تتحقق به الخدمة دون زيادة - أي: يُحصَل منها ما يعين على الانتفاع في الفهم بالقرآن والسنة، دون الشُّدور المشغلة والفروع المطوّلة التي تُذكَر في تلك العلوم.

والآخر: علومٌ أجنبيةٌ عنها؛ كعلم الفلسفة، والسحر، فلا يضرُّ الجهل بها، فتلك العلوم البعيدة في نسبتها إلى الكتاب والسنة لا يضرُّ متعاطي العلم أن يكون بها جاهلاً؛ بل ربّما أمر بالجهل فيها؛ لعدم الانتفاع بها، وحفظاً لوقته، وجمعاً لقلبه على الأنفع.

ثم أستحسن المصنّف ما أنشده القاضي (عِيَاضُ الْيَحْصِبِيُّ فِي كِتَابِهِ «الإلماع»:

الْعِلْمُ فِي أَصْلَيْنِ لَا يَعْدُوهُمَا إِلَّا الْمِضْلُ عَنِ الطَّرِيقِ اللَّاحِبِ^(١)

عِلْمُ الْكِتَابِ وَعِلْمُ الْإِثَارِ الَّتِي قَدْ أُسْنِدَتْ عَنْ تَابِعٍ عَنْ صَاحِبِ

(١) أي: الواضح.

ثُمَّ قَالَ: (وَقَدْ كَانَ هَذَا هُوَ عِلْمُ السَّلَفِ - عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ - ثُمَّ كَثُرَ الْكَلَامُ بَعْدَهُمْ فِيمَا لَا يَنْفَعُ، فَالْعِلْمُ فِي السَّلَفِ أَكْثَرُ وَالْكَلامُ فِيمَنْ بَعْدَهُمْ أَكْثَرُ)؛ لَأَنَّ عِلْمَ السَّلَفِ هُوَ الْاِشْتِغَالُ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ حِفْظًا، وَفَهْمًا، وَأَسْتِنْبَاطًا، ثُمَّ كَثُرَ الْكَلَامُ بَعْدَهُمْ فَطَوَّلَ الْقَوْلُ فِي مَسَائِلِ الْعِلْمِ بِهَا لَا يُجْتَاجُ إِلَيْهِ.

(قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: قُلْتُ لِأَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: الْعِلْمُ الْيَوْمَ أَكْثَرُ أَوْ فِيمَا تَقَدَّمَ؟، فَقَالَ: «الْكَلامُ الْيَوْمَ أَكْثَرُ، وَالْعِلْمُ فِيمَا تَقَدَّمَ أَكْثَرُ»); فَالْكَلامُ الَّذِي هُوَ بَيَانُ النَّاسِ وَإِعْرَاضُهُمْ عَنِ مَعَانِي الْعِلْمِ وَمَسَائِلِهِ أَكْثَرُ فِيمَنْ تَأَخَّرَ عَمَّنْ تَقَدَّمَ، لَكِنَّ الْعِلْمَ فِيمَنْ تَقَدَّمَ أَكْثَرُ مِنْهُ فِيمَنْ تَأَخَّرَ، فَأَنْتَ تَجِدُ مِثْلًا تَفْسِيرَ سَفِيَانَ بْنِ عَيْنَةَ، وَإِذَا هُوَ يَذْكُرُ كَلِمَةً وَاحِدَةً - أَي: جُمْلَةً وَاحِدَةً - فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي شَيْءٌ عَظِيمٌ يُعْبَرُ عَنْهُ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْقَوْلِ مَطْوَّوْلَةٍ؛ كَقَوْلِهِ الَّذِي تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَاصِرِفُ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قَالَ: أَحْرَمَهُمْ فَهَمَّ الْقُرْآنُ؛ فَهِيَ جُمْلَةٌ مِنْ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ، فِيهَا مِنَ الْبَيَانِ وَالْمَعَانِي النَّافِعَةُ مَا لَا تَجِدُهُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْمَتَأَخِّرِينَ، فَيَتَحَقَّقُ لَكَ بِالْمُقَايَسَةِ بَيْنَ كَلَامٍ مُتَقَدِّمٍ وَمَتَأَخِّرٍ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ الْبُؤْسَ الشَّاسِعَ وَالْفَرْقَ الْعَظِيمَ بَيْنَ الْأَوَائِلِ وَالْأَوَاخِرِ، وَأَنَّ الْعِلْمَ فِي الْأَوَائِلِ أَكْثَرُ، وَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ فِي الْأَوَاخِرِ أَكْثَرًا. وَلِأَجْلِ مَا كُتِبَ بِهِ كَلَامُ الْأَوَائِلِ مِنَ الْخَيْرِ صَارَ عِلْمُهُمْ لَهُ بَرَكَةً، مِمَّا يُفْقَدُ فِي مُقَابَلِهِ مِنَ كَلَامِ الْمَتَأَخِّرِينَ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَتَأَخِّرِينَ يَطْوُلُ كَلَامُهُمْ وَتَقِلُّ بَرَكَتُهُ، وَأَمَّا السَّلَفُ فَيَقِلُّ كَلَامُهُمْ وَتَكْثُرُ بَرَكَتُهُ، قَالَ ابْنُ أَبِي الْعَزَّيِّ فِي «شَرْحِ الطَّحَاوِيَّةِ»: «فَلِذَلِكَ صَارَ كَلَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْمَتَأَخِّرِينَ كَثِيرًا قَلِيلَ الْبَرَكَةِ، بِخِلَافِ الْمَتَقَدِّمِينَ؛ فَكَانَ كَلَامُهُمْ قَلِيلًا كَثِيرَ الْبَرَكَةِ»، وَأَشَارَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى ابْنُ الْقَيْمِ أَيْضًا.

فالعلم ليس بكثرتة، وإنما ببركته؛ أي: ما تجدد من الانتفاع به، وهذا المعنى صار قليلا في الناس، فتجدهم يحمدون رجلاً لأجل كثرة كلامه، ويغضون من آخر لأجل قلة كلامه، ويغفلون عن الأثر الذي يوجد من كلام هذا وكلام هذا.

فانظر ذاك الذي يطول؛ أنتفع به كثير أم قليل؟، وذاك الذي يقل أنتفع به قليل أم كثير؟، تعرف الفرق بين علم هذا وعلم هذا، وإذا رزق العبد وفرة في علمه مع بركة فذلك خير، لكن غالب من يغرب بالبيان يسلب النية الصالحة، لأن البيان يورث النفس عجباً وفخراً فتحوّل تلك النيات دون النية الصالحة، فتقل بركته في الخلق؛ بخلاف من يقل كلامه ولا سيما مع كبر سنّه وأنكسار نفسه، وبعد الشيطان عنه، فإنه وإن كان كلامه قليلاً لكن منفعته عظيمة.

وأعتبر هذا فيمن تسمع تسجيلاً له ممن مضى من العلماء أو من بقي منهم، وأنت تجد الفرق في الانتفاع منهم مع قلة كلامهم؛ بخلاف فقدان هذا الانتفاع عند آخرين يتكلمون فيبينون فيطولون؛ لتعرف صحة مدرك العلم.

وأذكر مما سمعت في زمن الطلب أن متكلماً في العلم قال: أنصح الشباب ألا يحضروا عند الكبار، وليحضروا عند طلبة العلم الشباب؛ لأن الكبار قد حطمهم الكبر فيقل كلامهم، وأما الشباب ففيه جذوة النشاط التي تحملهم على البحث فيكثرون من مواد العلم التي يهيئون بها الدرس، فيجد المتلقي فوائد كثيرة من كلامهم.

وهذا علمت بعد أنه مقياس فاسد، والحمد لله أنني لم أومن به حينئذ، فإنه ليس المقياس أن تجد كثرة المعلومات، ولكن المقياس أن توجد البركة من ذلك المعلم وإن قل كلامه، وهذا في كبار العلماء الذين جمعوا العلم مع كبر السنّ أحرى من غيرهم وإن قل كلامهم؛ فإنه بقليل الكلام تفتح لك البركات، وييسر لك أخذ العلم، بخلاف كثرة الكلام الذي

يصدر مَمَّنْ تُفَقِّدُ مِنْهُ الْبَرَكَةَ، فَاجْعَلْ مَطْلُوبَكَ فِي الْعِلْمِ مَا يُوْرِثُ فِيكَ الْخَيْرَ وَالِانْتِفَاعَ وَالْبَرَكَةَ لَا كَثْرَةَ الْمَعْلُومَاتِ أَوْ اخْتِلَافَهَا.

وَلَمَّا كَانَ هَذَا مَقْيَاسًا مُعْتَدًّا بِهِ - وَهُوَ النَّظَرُ إِلَى الْانْتِفَاعِ وَالثَّمَرَةِ وَالْبَرَكَةِ - كَانَ أَخْذُ الْعِلْمِ مَبْنِيًّا عَلَى أَصُولٍ ثَابِتَةٍ لَا تَتَّغَيَّرُ، وَمِنْ جَمَلَتِهَا تَكَرُّرُ كِتَابٍ لَا يَتَحَوَّلُونَ عَنْهَا؛ لِأَنَّهَا الْكُتُبُ الَّتِي وُجِدَ الْانْتِفَاعُ وَالْبَرَكَةُ بِهَا، فَلَا حَاجَةَ إِلَى تَغْيِيرِهَا بِغَيْرِهَا مِمَّا يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْمَنْفَعَةِ الْكَامِلَةِ.

وَتَجِدُ فِي النَّاسِ بِكَثْرَةِ الْيَوْمِ مَنْ يَعْيبُ كَثْرَةَ تَكَرُّرِ كِتَابٍ مَا، وَلَوْ أَنَّهُ فَكَّرَ هَذَا الْمَنْهَجَ الَّذِي يَدَّعِيهِ عَمَّنْ أَخَذَهُ؟!، فَإِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ فِي كُلِّ قُطْرٍ كَانُوا يَلْزَمُونَ كِتَابًا مَعِيْنَةً، وَلَمْ يُجْعَلْ مِنْ طَرِيقَةِ الْعِلْمِ تَغْيِيرُ الْكُتُبِ إِلَّا فِي هَذَا الزَّمَانِ بِأَخْرَةٍ، فَكَانَ إِدْرَاكُ عِلْمٍ مَا فِيهِ كِتَابٌ مَعِيْنَةٌ يَدْرُسُهَا الطَّالِبُ، وَفِي عِلْمٍ آخَرَ كِتَابٌ مَعِيْنَةٌ يَدْرُسُهَا الطَّالِبُ، وَالْأَنْفَعُ لِلطَّالِبِ تَكَرُّرُ تِلْكَ الْأَصُولِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ.

وَتَجِدُ فِي تَرَاجِمِ مَنْ مَضَى مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدِيمُونَ تَكَرُّرَ تِلْكَ الْكُتُبِ؛ حَتَّى ذَكَرْتُ لَكُمْ فِي بَعْضِ الْمَجَالِسِ أَنَّ شَيْخَنَا أَبْنَ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَقْرَأَ فِي مَدِينَةِ (الدَّكْمِ) - لَمَّا كَانَ مَنشَغَلًا بِالتَّعْلِيمِ أَكْثَرَ مِمَّا خَلْفَهُ بَعْدَ ذَلِكَ - أَقْرَأَ «ثَلَاثَةَ الْأَصُولِ» أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ!

وَبَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ: يَكْفِي شَرْحَ «ثَلَاثَةِ الْأَصُولِ» مَرَّةً لِيَسْتَفِيدَ مِنْهَا الْإِنْسَانُ ثُمَّ يُنْقَلُ إِلَى غَيْرِهَا؛ وَهَذَا مِنَ الْجَهْلِ، نَعَمْ.. يُنْقَلُ إِلَى غَيْرِهَا لَكِنْ مَا يَتْرَكُهَا؛ لِأَنَّهَا مِنْ أَصُولِ الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْفَاتِحَةُ نَكَرَّرَهَا نَحْنُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ؛ لِأَنَّهَا أَصْلُ الدِّينِ النَّافِعِ فِي بَابِ الْخَبْرِ أَوْ فِي بَابِ الطَّلَبِ، فَلَيْسَ تَكَرُّرُ شَيْءٍ عَيْبًا إِلَّا فِي الْمَنَاهِجِ الْمَعَاصِرَةِ الَّتِي وَفَدَتْ عَلَيْنَا مِنْ آثَارِ اخْتِلَاطِ الْحَضَارَاتِ فَصَارَ هَذَا عَيْبًا فِي التَّعْلِيمِ وَالِإِصْلَاحِ، وَهُوَ مَنْهَجُ حَادِثٍ.

وَإِذَا أَرَدْتَ الْانْتِفَاعَ فِي كُلِّ شَيْءٍ - فِي عِلْمٍ، أَوْ تِجَارَةٍ، أَوْ مَعَامَلَةِ النَّاسِ - فَانظُرْ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مَنْ قَبْلَكَ وَأَقْتَدِ بِهِ، وَدَعْ مَا يَتَجَدَّدُ لِلنَّاسِ مِنَ الْاِقْتِرَاحَاتِ، فَإِنَّ عَامَّتَهُ لَا نَفْعَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ

لا يصدر من كمال عقلٍ ولا طول تجربةٍ، بخلاف مَنْ كان له طول تجربةٍ وكمال عقلٍ في علم أو عمل أو دعوة أو تجارة أو إصلاح أو ثقافة، فتجد عنده من الخبرة والفهم ما لا يوجد عند غيره.

فالزم ما تُدُلُّ عليه بهؤُلاءِ، وأترك ما عداهم.



قال المصنف وفقه الله :

المَعْقَدُ الْخَامِسُ سُلُوكُ الْجَادَةِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهِ

لِكُلِّ مَطْلُوبٍ طَرِيقٌ يُوصِلُ إِلَيْهِ، فَمَنْ سَلَكَ جَادَةً مَطْلُوبِهِ أَوْقَفَتْهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ عَدَلَ عَنْهَا لَمْ يَظْفَرْ بِمَطْلُوبِهِ، وَإِنَّ لِلْعِلْمِ طَرِيقًا مِّنْ أَخْطَأَهَا ضَلَّ وَلَمْ يَنْلِ الْمَقْصُودَ، وَرَبِّمَا أَصَابَ فَائِدَةً قَلِيلَةً مَعَ تَعَبٍ كَثِيرٍ.

وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا الطَّرِيقَ بِلَفْظِ جَامِعِ مَانِعٍ مُحَمَّدٌ مُرْتَضَى بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّيْدِيُّ - صَاحِبُ «تَاجِ الْعُرُوسِ» - فِي مَنْظُومَةٍ لَهُ تُسَمَّى «الْفَيْةُ السَّنَدِ»، يَقُولُ فِيهَا:

فَمَا حَوَى الْغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَةٍ شَخْصٌ فَخِذْ مِنْ كُلِّ فَنِّ أَحْسَنَهُ
بِحِفْظِ مَتْنِ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ
فَطَرِيقُ الْعِلْمِ وَجَادَتُهُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَمْرَيْنِ، مَنْ أَخَذَ بِهِمَا كَانَ مُعْظَمًا لِلْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ يَطْلُبُهُ مِنْ حَيْثُ يُمَكِّنُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ:

فَأَمَّا الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: فَحِفْظُ مَتْنِ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ، فَلَا بُدَّ مِنْ حِفْظِهِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَنَالُ الْعِلْمَ بِلَا حِفْظٍ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ مُحَالًا.

وَالْمَحْفُوظُ الْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ هُوَ الْمَتْنُ الْجَامِعُ لِلرَّاجِحِ؛ أَيِ الْمُعْتَمَدُ عِنْدَ أَهْلِ الْفَنِّ.
وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي: فَأَخْذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحٍ، فَتَفَرُّعٌ إِلَى شَيْخٍ تَتَفَهَّمُ عَنْهُ مَعَانِيهِ، يَتَّصِفُ بِهِذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ:

وَأَوْهُمَا: الْإِفَادَةُ، وَهِيَ الْأَهْلِيَّةُ فِي الْعِلْمِ، فَيَكُونُ مِمَّنْ عُرِفَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ وَتَلْقِيهِ حَتَّى أَدْرَكَ، فَصَارَتْ لَهُ مَلَكَةٌ قَوِيَّةٌ فِيهِ.

وَالْأَصْلُ فِي هَذَا مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» بِإِسْنَادٍ قَوِيٍّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ». وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ الْخِطَابِ، لَا بِخُصُوصِ الْمُخَاطَبِ، فَلَا يَزَالُ مِنْ مَعَالِمِ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَأْخُذَهُ الْخَالَفُ عَنِ السَّالِفِ.

أَمَّا الْوَصْفُ الثَّانِي: فَهُوَ النَّصِيحَةُ، وَتَجْمَعُ مَعْنَيْنِ اثْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا: صَلَاحِيَّةُ الشَّيْخِ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِ، وَالْآخَرُ: مَعْرِفَتُهُ بِطَرَائِقِ التَّعْلِيمِ، بِحَيْثُ يُحْسِنُ تَعْلِيمَ الْمُتَعَلِّمِ، وَيَعْرِفُ مَا يَصْلُحُ لَهُ وَمَا يَضُرُّهُ، وَفَقَّ التَّرْبِيَّةَ الْعِلْمِيَّةَ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّاطِبِيُّ فِي «الْمُؤَافَقَاتِ».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

ذَكَرَ الْمَصْنُفُ وَفَّقَهُ اللَّهُ مَعْقِدًا آخَرَ مِنْ مَقَاعِدِ تَعْظِيمِ الْعِلْمِ؛ وَهُوَ: (سُلُوكُ الْجَادَّةِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهِ)، وَالْجَادَّةُ هِيَ: الطَّرِيقُ. وَأَبْتَدَأَ بِيَانِهِ بِقَوْلِهِ: (لِكُلِّ مَطْلُوبٍ طَرِيقٌ يُوَصِّلُ إِلَيْهِ)؛ أَي: لِكُلِّ أَمْرٍ يَرُومُ الْمَرْءُ تَحْصِيلَهُ طَرِيقٌ تُوَدِّي بِسَالِكِهَا إِلَيْهِ، قَالَ: (فَمَنْ سَلَكَ جَادَّةَ مَطْلُوبِهِ أَوْ قَفَّتْهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ عَدَلَ عَنْهَا لَمْ يَظْفَرْ بِمَطْلُوبِهِ).

ثُمَّ قَالَ: (وَإِنَّ لِلْعِلْمِ طَرِيقًا مِنْ أَخْطَأَهَا ضَلَّ وَلَمْ يَنْلِ الْمَقْصُودَ، وَرُبَّمَا أَصَابَ فَائِدَةً قَلِيلَةً مَعَ تَعَبٍ كَثِيرٍ) فَالْحَائِدُونَ - أَي: الْمَائِلُونَ - عَنِ جَادَّةِ الْعِلْمِ لَا يُحْصِلُونَ الْعِلْمَ، وَمَنْ سَلَكَ غَيْرَ طَرِيقِ الْعِلْمِ فِي طَلْبِهِ فَمَتَّهَاهُ إِلَى حَالِينَ: أَحَدُهُمَا: أَلَّا يَنَالِ الْعِلْمَ.

والآخر: أن يصيب منه حظًا قليلًا مع تعبٍ كثيرٍ.

فإنك ترى فئامًا من الخلق يبتغون التماس العلم، لكنهم لا يأخذون بجادته ولا يسلكون طريقه، فمتهى هؤلاء تارة: إلى ألا ينالوا العلم؛ فينقطعوا عنه، ويملوه، ويصير بينهم وبينه حجابٌ كثيفٌ، وتارة أخرى: يكون فيهم من يُحصِّلُ علمًا لكن مع تعبٍ كثيرٍ، فهو ينفق وقتًا كثيرًا في طلبه، ومالًا وفيرًا في التماسه، وصحَّةً في اقتباسه، ثم لا يرجع من ذلك بشيءٍ على قدر ما بذل.

وعلةٌ هَذَا وذاك: أنَّهما طلبا العلم بغير طريقه.

وأعتبر هَذَا في حال من خرج يريد مكة، وإذا هو قد أخذ في الطريق المفضي إلى الدمام، فهذا له حالان:

أحدهما: أن يصل إلى الدمام، وإذا هي الدمام وليست مكة، فلا يرجع إلى طلب مكة، ويعود مرة أخرى إلى الرياض، فلا يُحصِّلُ شيئًا من الوفود على مكة.

والآخر: أن يبلغ الدمام فيقال له: هَذِهِ الدمام وليست مكة، لكن مكة وراء الرياض من جهة الغرب، فيعود مرة أخرى حتى يصل إلى مكة بعد ست عشرة ساعة في السفر، ثم يعتمر وهو تعبٌ، ثقل النفس، ثم يرجع إلى الرياض، وإذا به لم يصب من الوفود على مكة إلا شيئًا يسيرًا من الانتفاع، فهذا كحال الناس في العلم.

ثم بين الطريق الموصل إلى العلم في النعت الذي ذكره جماعةٌ منهم: الزبيديُّ في «الفيَّة السند» إذ قال:

فَمَا حَوَى الْغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَةٍ شَخْصٌ فَخَذَ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَهُ
بِحِفْظِ مَثْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ

فطريقُ العلمِ وجادتهُ مبنيةٌ على أمرين، من أخذ بهما كان مُعْظَمًا لِلْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ يَطْلُبُهُ مِنْ حَيْثُ يُمَكِّنُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ، ثم بين هذين الأمرين فقال:

(فَأَمَّا الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: فَحِفْظُ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ) - أي: متن معتمد عند أهل الفن -، (فَلَا بُدَّ مِنْ حِفْظٍ)، ولا بدّ أن يكون محلّ الحفظ: المتن الجامع للراجح، والمراد بكونه جامعاً للراجح: أي مُعتمداً عند أهل الفن، فخرج بهذا نوعان:
أحدهما: مَنْ يطلب العلم ولا يحفظ.

والآخر: مَنْ يطلب العلم ويحفظ، لكن لا يشتغل بحفظ المتون المعتمدة.
فالأول مثلاً: كحال مَنْ يطلب النحو ولا يحفظ فيه متناً مختصراً أو مطولاً.
والثاني: كحال مَنْ يطلب النحو ثم يحفظ ألفية الآثاري أو الأجهوري، أو غيرها من متون النحو التي لم يقع اعتمادها، فلم يتلقها الناس بالدرس ولا بالشرح، فلا تجدها مشهورة بالتدريس، ولا تجدها ممهورة بشروح مدونة عليها أو محفوظة صوتياً كالحال التي صار عليها الناس اليوم.

ثم ذكر الأمر الثاني فقال: (وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي: فَأَخْذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحٍ)؛ أي: تَلْقِيهِ عَنِ رَجُلٍ يَجْمَعُ وَصَفَيْنِ:
أحدهما: الإفادة.
والآخر: النصيحة.

والمراد بـ(الإفادة): (الْأَهْلِيَّةُ فِي الْعِلْمِ)؛ أي: التَّمَكُّنُ فِيهِ، ومفتاح هَذَا التَّمَكُّنِ هو المذكور في قوله: (فَيَكُونُ مِمَّنْ عُرِفَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ وَتَلْقِيهِ حَتَّى أَدْرَكَ، فَصَارَتْ لَهُ مَلَكَتٌ قَوِيَّةٌ فِيهِ)؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَكُونُ مَتَأَهِّلاً فِي فَنٍّ مِنَ الْفُنُونِ حَتَّى يَتَلَقَاهُ بِأَخْذِهِ عَمَّنْ تَقْدَمُهُ.

والأصل في هَذَا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ)).

(وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ الْخِطَابِ) - أي: في لفظه - (لَا بِخُصُوصِ الْمُخَاطَبِ) - وَهُمْ الصَّحَابَةُ -، (فَلَا يَزَالُ مِنْ مَعَالِمِ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَأْخُذَهُ الْخَالِفُ عَنِ السَّالِفِ)، فلا

سبيل إلى بلوغ رتبة المفيد في العلم إلا بأن يكون جامع العلم مُتَلَقِّيًا له عمَّنْ قبله، فإذا كان مُتَلَقِّيًا له من الكتب لم تحصل له الإفادة وإن كثرت معلوماته فيه.

فإنَّ المفيد في علمٍ ليس هو كثير المعلومات فيه، لكنَّ المفيد في العلم هو الحاذق فيه المقتدر على حلِّ مشكلاته ولو لم تطرُق سمعَه من قبل، المتمكِّنُ من فتح مقفلاته وإن لم تُذكَر له من قبل.

ولا يُحصِّله إلا بأن يكون قد تلقاه عمَّنْ قبله من أهل العلم، فإنه كما يوجد النَّاسُ نسبًا توجد العلوم نسبًا، فأنت منسوبٌ إلى أبي، وأبوك منسوبٌ إلى أبي، ولو لم يكن لك أبٌ وجدٌ لم تكن موجودًا، وكذلك الإفادة في العلم؛ إذا لم يكن لمعلِّمك نسبٌ في العلم بأخذه عمَّنْ تقدَّمه، ومن تقدَّمه أخذه عمَّنْ تقدَّمه فإنه لا وجود عنده للإفادة في العلم وإن ادَّعيت له.

فشرطُ العلم: المعرفة بالطلب قبل، قال ابنُ عونٍ: «لا يؤخذ العلم إلا عن مَنْ عُرِفَ بالطلب»؛ أي: شهر بالتماس العلم والحرص عليه، والتردُّد على شيوخه، والارتحال إلى غير أهل بلده لجمع العلم، فإنَّ هذا يورثه الأهلِيَّةُ فيه.

ثم ذكر الوصف الثاني فقال: (أَمَّا الْوَصْفُ الثَّانِي: فَهُوَ النَّصِيحَةُ)؛ أي: أن يكون الشيخ المعلم ناصحًا، قال: (وَتَجْمَعُ مَعْنَيْنِ اثْنَيْنِ):

(أَحَدُهُمَا: صِلَاحِيَّةُ الشَّيْخِ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِ، وَالْآخَرُ الْإِهْتِدَاءُ بِهِدْيِهِ وَدَلَّهِ وَسَمَّتِيهِ)؛ أي: بأن يكون الشيخ صالحًا للإقتداء والاتباع والاهتداء بما هو عليه من أحوال، وليس المقصود أن يكون خاليًا من الذُّنُوبِ، فإنَّ الخلوَّ من الخطيئة مفارقٌ للأدَمِيَّةِ؛ فكل بني آدم خطَّاءٌ، والله كتب على كلِّ عبدٍ نصيبه من الذُّنُوبِ، ولكنَّ المراد هو: أن تغلب حسناته سيئاته.

فإنَّ أَسْمَ (العدل) هو: مَنْ كانت طاعاته أكثر من سيئاته. ذكره الشافعي وأبو حاتم ابن حِبَّانَ في آخرين.

فإذا غلب ذلك عليه صار صالحاً للاقتداء، وإذا كثرت هذه الغلبة فيه صار صالحاً أكثر فأكثر، وهذا يوجد - كما ذكر ابن قتيبة - فيمن تقدم به العمر من أهل العلم؛ لأن نفوسهم يحطمها ما مضى من عمرهم، وما اختل من أبدانهم، فلا يكون لهم من الشهوات في الناس ما يوجد للشباب، ويكون الشيطان - لكثرة ممارستهم الطاعة - أبعد عنهم ممن دونهم من الشباب الناهضين في العلم.

فكلما كثرت سن المعلم كان أحرى أن يوجد فيه الاهتداء والافتداء، وأكمل الاهتداء والافتداء هو بمن مات، ولذلك كانت وصية السلف به، لكن عامة الخلق يعجزون عن الاقتداء بمن مات، ويؤثر فيهم الحي أكثر من خبر الميت.

ثم ذكر الوصف الآخر فقال: **(وَالْآخِرُ: مَعْرِفَتُهُ بِطَرَائِقِ التَّعْلِيمِ)** - أي: تكون له بصيرة في طرائق التعليم -، **(بِحَيْثُ يُحْسِنُ تَعْلِيمَ الْمُتَعَلِّمِ، وَيَعْرِفُ مَا يَصْلُحُ لَهُ وَمَا يَضُرُّهُ، وَفَقَّ التَّرْبِيَةَ الْعِلْمِيَّةَ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّاطِبِيُّ فِي «المَوَافَقَاتِ»)**؛ فهو في تعليمه الناس يسلك بهم ما يصلحون به، ويتنفعون، ولا يخرجهم ذلك عما ينبغي أن يكون عليه من إكرام العلم وإجلاله؛ بل يدعوهم إكرام العلم وإجلاله إلى معاملتهم بهذا.

فهو مثلاً: يشرح جملة واحدة في جماعة من المتعلمين على غير نسق، فربما شرحها لأحدهم بالسكوت عنها، فمثلاً: قرأ عليه أحدهم: (بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين)، فقال: أبدأ المصنف بالبسملة، ثم أردفها بالحمدلة، ثم ثلث بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم. وربما قال لمعلم آخر - زيادة على ما قال للأول -: أبدأ المصنف بالبسملة أتباعاً للوارد في الأحاديث النبوية، والبسملة نحت لجملة: (بسم الله الرحمن الرحيم)، والنحت: لون من ألوان وضع اللغة عند العرب، فيقال: (البسملة) في (بسم الله الرحمن الرحيم)،

و(الحمدلة) ل(الحمد لله)، و(الحوقلة) ل(لا حول ولا قوة إلا بالله)، ثم أتبعها بالحمد؛ وهو:
الحمدلة كما تقدّم، والحمد: هو الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه.

ثم قال لثالث: أبدأ المصنّف ب(بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، والبداة بالبسملة ممّا أتفق أهل العلم على كونه من آداب التّصانيف، وأختلفوا في الأدلة التي تدلُّ على ذلك؛ فمنهم: مَنْ جعل دليله القرآن والسُّنَّة والإجماع، ومنهم مَنْ جعل دليله السُّنَّة وفعل الصحابة في القرآن والإجماع، ثم يبيّن له وجوه تلك الأدلة.

هو الشَّيخ نفسه، لكنَّ أصحابه مختلفون؛ ففارق فيما يمنحهم من العلم باختلاف أحوالهم.

فالأوّل: مبتدئ؛ فجعل له ما ينفعه.

والثاني: متوسط؛ فجعل له ما ينفعه.

والثالث: منته؛ فجعل له ما ينفعه.

وربما وُجد نوعٌ رابعٌ من أصحابه: وهم البالغون الانتفاع في العلم؛ لا يبيّن لهم هذا الكلام؛ لأنّه ممّا أدركوه، وإنّما يذكر لهم المشكلات في العلم، فربّما يقرءون عليه كتابًا لا يعلّق فيه إلاّ تعاليق يسيرة؛ لأنّها لهم كالمسامير في العلم، فهم يعون هذا الكتاب تفصيلاً، لكنّ هناك معانٍ من العلم تخفى فينبههم إليها بالنظر إلى حالهم.

وهذا الأمر من النُّصح للمتعلّمين ممّا فرط فيه أكثر المعاصرين، فصار النُّصح لهم قليلاً، فهم لا يلاحظونهم فيما ينتفعون به، وفيما يصلح لهم، وإنّما جمهورهم صار يلاحظ ما يصلح لنفسه، وهذا شيءٌ لا نقوله من نسج الخيال، ولا يخفى عليكم في واقع الحال، بل رأينا قصصاً وأحوالاً يندى لها الجبين من حال بعض المعلمين.

وأذكرُ من عجيب ما وقع في حال سابقة: أنّ صاحباً لي حدّثني وهو يقرأ عند أحد المشايخ: أنّ شاباً جاء إليه - أي إلى الشيخ - وقال له: أحسن الله إليك، أنا أحبُّ أن أقرأ

عليكم في الحديث، فقال له: ماذا تحب أن تقرأ؟، فقال: ماذا ترى يا شيخ؟، قال: «مسند الإمام أحمد»، طبعته مؤسسه الرسالة طبعة جديدة، وبودنا أن نطلع على هذه الطبعة، فهات معك «مسند الإمام أحمد» طبعة الرسالة. قال محدثي: وهذا الشاب لم يقرأ في الحديث قبل حتى «الأربعين النووية»!، فهل هذا من النصح له؟!
الجواب: لا، هذا من الغش له.

ولم يكن الناس على هذا؛ بل إذا جاءهم الطالب سألوه: ماذا قرأت؟، ثم نظروا في حاله، ورأوه باعتبار ما يصلح له وبه.

ومن شواهد هذا فيما مضى أن شيخنا فهد بن حمين رحمه الله لما وفد من (الزلفي) إلى الرياض على شيخه محمد بن إبراهيم وعانى في السفر مشقة عظيمة، فلما أنهى إلى شيخه مع مشقة السفر ولهفة النفس وسلم على الشيخ، قال له: أحسن الله إليك، أنا فلان وجمت من كذا، وأحب أن أقرأ عليك في العلم، قال له: هل تحفظ القرآن يا ولدي؟، قال: لا، قال: إذا الآن أشتغل بحفظ القرآن، فإذا حفظت القرآن فأنا موجود تعال وأقرأ علي العلم.

أنظر كيف؟!، هو تعبان، وقادم من الزلفي، ونفسه تتلهف إلى دراسة العلم، لكن نقله إلى الأنفع له، وجدّه شاباً صغيراً يمكنه أن يستدرك نفسه في العلم، فإن حفظ القرآن مع العلم له قواعد، فحمله على الأنفع له، فحفظ الشيخ فهد رحمه الله القرآن في ستة أشهر، وأتفق له أنه حفظ سورة الأنعام بعد صلاة العصر إلى المغرب، فإنه آتخذ له خلوة في أعلى مسجد الشيخ في أماكن الطلبة، جعلها لحفظ القرآن الكريم، ثم بعد ذلك نزل إلى الأخذ عن الشيخ، فلازمه اثنين وعشرين سنة!

لعل الذي جعله يلازمه اثنين وعشرين سنة هو تلك الردة، حمله على الأنفع، فوفقه الله إلى الأمتع.

والشيخ صالح الأطرم رَحِمَهُ اللهُ أبتدأ على الشيخ محمد بن إبراهيم يقرأ عليه، فقرأ عليه «ثلاثة الأصول»، ثم قرأ عليه بعد ذَلِكَ «شروط الصلاة وأركانها وواجباتها»، ثم قرأ عليه بعد ذَلِكَ «الأربعين النووية»، ثم قرأ عليه بعد ذَلِكَ «كتاب التوحيد»، ثم قرأ عليه «العقيدة الواسطية»، فلما أبتدأ يقرأها - يعني من حفظه - لَحْنٌ فِي أَوَّلِهَا، فقال له الشيخ محمد: لا يا صالح، ما يصلح، لازم الآن تقرأ «الآجرامية» ثم بعد ذَلِكَ نرجع إلى «الواسطية»، فدرسه «الآجرامية» ثم بعد ذَلِكَ رجع مرّة أخرى إلى «الواسطية»؛ لأنّه يلاحظ ما ينفع هَذَا الطَّالِبَ، ما يلاحظ ما ينفعه هو.

فلَمَّا كَانَ النَّاسُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ - متعلمين ومشايع - وَوُجِدَ الْإِنْتِفَاعُ بِالْعِلْمِ، ثُمَّ لَمَّا غَابَ هَذَا وَذَهَبَتِ النَّصِيحَةُ - أَوْ قَلَّتْ - فِي النَّاسِ ذَهَبَ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ، فَالْقُدْرَةُ عَلَى الْعِلْمِ مَوْجُودَةٌ فِي النَّفُوسِ، لَكِنَّ الْإِهْتِدَاءَ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ:

بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ
صار قليلاً في الناس.

فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَسْلُكْ هَذِهِ الْجَادَّةَ الَّتِي أَرشَدُ إِلَيْهَا الزَّيْدِيُّ، وَقَبْلَهُ جَمَاعَةٌ وَبَعْدَهُ جَمَاعَةٌ، لَكِنَّهُ سَلَكَهَا فِي بَيْتَيْنِ مِنَ الشَّعْرِ، فَقَالَ:

فَمَا حَوَى الْغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَةٍ شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنِّ أَحْسَنَهُ
بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ
بعد ذَلِكَ قَالَ:

ثُمَّ مَعَ الْمُدَّةِ فَابْحَثْ عَنْهُ حَقِّقْ وَدَقِّقْ مَا اسْتُمِدَّ مِنْهُ
وهذه حالٌ تكون بعد حال التلقّي للعلم^(١).

(١) هنا تمام المجلس الأول، وكان ذَلِكَ ليلة الخميس الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين بعد الأربعمائة والألف.

قال المصنف وفقه الله :

المعقد السادس

رعاية فنونه في الأخذ، وتقديم الأهم فالهم

قال ابن الجوزي في «صيد خاطره»: «جمع العلوم ممدوح».

مِنْ كُلِّ فَنٍّ خُذْ وَلَا تَجْهَلْ بِهِ فَاحْرُ مُطَّلِعٌ عَلَى الْأَسْرَارِ
وَيَقُولُ شَيْخُ شَيْوَحْنَا مُحَمَّدُ ابْنُ مَانِعٍ فِي «إِرْشَادِ الطَّلَابِ»: «وَلَا يَنْبَغِي لِلْفَاضِلِ أَنْ يَتْرُكَ
عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ الَّتِي تُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، إِذَا كَانَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً عَلَى
تَعَلُّمِهِ، وَلَا يَسُوعُ لَهُ أَنْ يَعِيبَ الْعِلْمَ الَّذِي يَجْهَلُهُ وَيُزِرِّي بِعَالِمِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا نَقْصٌ وَرَذِيلَةٌ،
فَالْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعِلْمٍ أَوْ يَسْكُتَ بِحِلْمٍ، وَإِلَّا دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِ الْقَائِلِ:
أَتَانِي أَنْ سَهَلًا ذَمَّ جَهَلًا عُلُومًا لَيْسَ يَعْرِفُهَا سَهْلٌ
عُلُومًا لَوْ قَرَأَهَا مَا قَالَهَا وَلَكِنَّ الرِّضَا بِالْجَهْلِ سَهْلٌ
أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

وإنما تنفع رعاية فنون العلم باعتقاد أصليين:

أحدهما: تقديم الأهم فالهم، مما يفتقر إليه المتعلم في القيام بوظائف العبودية لله.
والآخر: أن يكون قصده في أول طلبه تحصيل مختصر في كل فن، حتى إذا استكمل أنواع
العلوم النافعة نظر إلى ما وافق طبعه منها وأنس من نفسه قدرة عليه، فتبحر فيه، سواء كان
فنا واحدا أم أكثر.

وَمِنْ طَيَّارِ شِعْرِ الشَّنَاقِطَةِ قَوْلُ أَحَدِهِمْ:

وَإِنْ تُرِدْ تَحْصِيلَ فَنٍّ تَمِّمَهُ وَعَنْ سِوَاهُ قَبْلَ الْإِنْتِهَاءِ مَهْ
وَفِي تَرَادُفِ الْعُلُومِ الْمَنْعُ جَا إِنَّ تَوْأَمَانَ اسْتَبَقَا لَنْ يُخْرَجَا

وَمَنْ عَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْجَمْعِ جَمَعَ، وَكَانَتْ حَالُهُ أَسْتِثْنَاءً مِنَ الْعُمُومِ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر المصنّف وفّقهُ اللهُ معقداً آخرًا من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: **(رِعَايَةُ فُنُونِهِ فِي الْأَخْذِ، وَتَقْدِيمُ الْأَهَمِّ فَاْلْمَهْمِّ)**، والمراد بـ**(رِعَايَةُ فُنُونِهِ فِي الْأَخْذِ)**: الاعتناء بها، والإقبال عليها، فيرصد المتعلّم فنون العلم ويحصيها، ثمّ يقبل عليها واحداً واحداً، ولا يحصر إقباله على فنٍّ دون آخر، ثمّ يرضى تقديم الأهمّ فالْمَهْمِّ، فيقدّم الأعلى رتبةً ثم يتبعه ما دونه. وأبتدأ بيان هذا المعقد بقول **(أَبْنِ الْجَوْزِيِّ فِي «صَيْدِ خَاطِرِهِ» : «جَمْعُ الْعُلُومِ مَمْدُوحٌ»)**؛ أي: الأخذ بأطراف العلوم، والاطّلاع على أنواعها، فمما يمدح ويحمد للمتعلّم أن يكون له هذا طّلاعٌ على أنواع العلوم ومعرفةٌ بها؛ لأنّ العلم لا ينفق في صنّعه ولا يرتفع في أخذه إلاّ من أصاب من كلّ فنٍّ حظًا.

فعلوم هذه الملة الإسلامية مرتبطة بعضها دون بعض، ولا يتصور أن يدرك البغية من تلك العلوم من يجس نفسه على واحدٍ منها؛ فالفقيه الذي يروم منزلة الفقه العالية لا يصل إليها إن كان خلواً من علوم نافعة كأصول الفقه، وقواعده، ومقاصد الشرع... إلى أنواع العلوم ذات الصلة بفنّ الفقه.

ثمّ أتبعه بيت مشهور هو لابن الورديّ إذ قال فيه:

مِنْ كُلِّ فَنٍّ خُذْ وَلَا تَجْهَلْ بِهِ فَاحْرُ مُطَّلِعٌ عَلَى الْأَسْرَارِ

أي: نفس الحرّ تأبى أن تقف دون الاطلاع على ما ينفعها، فإن الحرّ إذا ذُكر له شيء ينتفع به تطلعت نفسه إليه، ومن جملة حال الحرّ في العلم أن يكون حريصاً على أنواع العلوم، راغباً فيها، متطلعاً إلى معرفتها.

ثم ذكر قول شيخ شيوخنا محمد بن عبد العزيز بن مانع رَحِمَهُ اللهُ في كتاب له ماتع؛ أسمه «إرشاد الطالب»، وهو من الكتب النافعة في توجيه مقتبسي العلم وملتسميه؛ فلا يستغني طالب العلم عن مطالعة هذا الكتاب، والانتفاع بما فيه من النصح والبيان.

ومن جملته المذكور هنا إذ قال: **(«وَلَا يَنْبَغِي لِلْفَاضِلِ أَنْ يَتْرِكَ عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ الَّتِي تُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، إِذَا كَانَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةَ عَلَى تَعَلُّمِهِ، وَلَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَعِيبَ الْعِلْمَ الَّذِي يَجْهَلُهُ وَيُزِرِّي بِعَالِمِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا نَقْصٌ وَرَذِيلَةٌ»)**؛ فذكر أنه لا ينبغي لذي الفضل أن يترك شيئاً من العلوم المعينة على فهم الكتاب والسنة؛ لافتقاره إليها في الحال التي وصف في قوله: **(إِذَا كَانَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةَ عَلَى تَعَلُّمِهِ)**؛ أي: إذا وجد من نفسه قدرة على فهمه، فإن مدارك الخلق تتفاوت، وكم من أمرٍ يُفتح له في علم، ويُغلق عليه علم آخر. والمتعلمون يبلغون هذا بإرشاد مشايخهم؛ فإن الشيخ المعلم يلحظ في حال المتعلم صلاحيته لهذا العلم، وقدرته عليه أو قعوده عنه، فإمّا أن يُمضيه فيه، وإمّا أن يحوِّله إلى علم آخر أنفع له.

ثم ذكر من نصحه أنه **(لَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَعِيبَ الْعِلْمَ الَّذِي يَجْهَلُهُ وَيُزِرِّي بِعَالِمِهِ)**؛ فإن من آفات المشتغلين بالعلم أن أحدهم إذا جهل علماً وقعد عن إدراكه عابه وعاب أهله، وأزرى عليهم، وهذا من عِلل المعلمين، فتجد بارعاً في الفقه وأصوله، فإذا ذُكر له الحديث وليست له يد فيه ولا معرفة به؛ أزرى على المشتغلين به، فقال: هم يشتغلون بأمرٍ قد فرغ منه، فإن الأحاديث تكلم فيها الحفاظ تصحيحاً وتضعيفاً، وإن الرواة تكلم فيهم النقاد جرحاً وتعديلاً؛ فيزري على ذلك العلم ويعيبه، وهذا - كما قال - **(نَقْصٌ وَرَذِيلَةٌ)**، فإن الجادة التي

ينبغي سلوكها هي ما أرشد إليه بقوله: **(فَالْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعِلْمٍ أَوْ يَسْكُتَ بِحِلْمٍ)**؛ أي: مَنْ كَانَ عَاقِلًا فَأَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ فَإِنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ بِعِلْمٍ، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِعِلْمٍ حَمَلَهُ الْعِلْمُ عَلَى رِفْعَةِ رَتْبَةِ ذَلِكَ الْعِلْمِ وَالْإِشَادَةِ بِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِمَنْ تَعَاطَى عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَكَانَ ذَا بَصِيرَةٍ فِي الْعِلْمِ أَنْ يَرَى شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْعُلُومِ نَقْصًا وَعَيْبًا، فَالضَّلِيلُ فِي الْفِقْهِ لَا يُزْرِي عَلَى الْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ، وَالْمُحَدِّثُ الْبَالِغُ الْمُكْتَنَةُ فِي الْحَدِيثِ لَا يُزْرِي عَلَى الْفِقْهِ وَأَهْلِهِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْإِزْرَاءُ مِمَّنْ نَقَصَ عِلْمَهُ أَوْ عَقْلَهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ: **(يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعِلْمٍ أَوْ يَسْكُتَ بِحِلْمٍ)**؛ يَعْنِي: يَدْعُوهُ عَقْلُهُ إِلَى أَنْ يَسْكُتَ عَنِ الْقَوْلِ فِي شَيْءٍ لَمْ يَبْلُغْهُ عِلْمُهُ.

وَمِنْ هُنَا قَالَ الشَّعْبِيُّ: «نِعَمَ وَزِيرُ الْعِلْمِ الْعَقْلُ»، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا حَازَ عِلْمًا وَجَمَعَ إِلَيْهِ عَقْلًا أَنْتَفَعَ أَنْتَفَاعًا عَظِيمًا، فَإِنَّ الْعِلْمَ بِمَنْزِلَةِ الْمَلِكِ الَّذِي يُدَبِّرُ، وَالْعَقْلَ بِمَنْزِلَةِ الْوَزِيرِ الَّذِي يُعِينُ وَيَشِيرُ، فَإِذَا كَانَ لَهُ عِلْمٌ كَامِلٌ وَعَقْلٌ نَافِذٌ أَرَشَدَهُ الْعَقْلُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ، فَالَّذِي يَكُونُ مَتَمَكِّنًا مِنْ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ ثُمَّ يُذَكِّرُ لَهُ عِلْمٌ آخَرَ لَا يَدَّ لَهُ فِيهِ فَإِنَّمَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعِلْمٍ، فَيَعْرِفُ لِهَذَا الْعِلْمِ رَتْبَتَهُ، أَوْ يَسْكُتَ بِحِلْمٍ، فَلَا يَدْعُوهُ عَقْلُهُ إِلَى أَنْ يَعِيبَ عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ الْمَعْتَدِ بِهَا.

ثُمَّ قَالَ: **(وَإِلَّا دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِ الْقَائِلِ:**

أَتَانِي أَنْ سَهْلًا ذَمَّ جَهْلًا عُلُومًا لَيْسَ يَعْرِفُهَا سَهْلًا
عُلُومًا لَوْ قَرَأَهَا مَا قَلَّهَا وَلَكِنَّ الرِّضَا بِالْجَهْلِ سَهْلًا

وقوله: **(أَتَانِي)**؛ أي: بلغني.

وقوله: **(ذَمَّ جَهْلًا عُلُومًا)**؛ أي: ذم علومًا لجهله بها.

وقوله: **(عُلُومًا لَوْ قَرَأَهَا)**؛ أي: لو تلقاها بالقراءة على الشيوخ؛ فاسم (القراءة) في

عُرف المتقدمين: لما يتلقى عن الشيوخ.

وقوله: **(مَا قَالَاهَا)**؛ أي: ما أبغضها؛ لأن من البُغض ما ينشأ من الجهل، ومن مأثور القول: «مَنْ جَهْلٌ شَيْئًا أَنْكَرَهُ وَعَادَاهُ». قاله الوزير خالد البرمكي، وبعده الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُمَا اللهُ.

فالعبد إذا جَهِلَ شيئًا أنكره ونصب له العداوة، سواءً في أعيان الخلق أو في معاني المعارف والعلوم.

وهو يريد بهذين البيتين: الخبر عن رجل أسمه: سهل، تكلم بالذم في جملة من العلوم التي يتعاطاها الخلق، وبين أن منشأ كلامه في ذم تلك العلوم نبت من جهله بها، فهو لم يتلقاها عن الأشياخ، فلما قعد عن تلقيها وعزب عنه علمه بها أنكر تلك العلوم وذمها وقلاها - أي: أبغضها -، وحقيقة حاله كما قال: **(وَلَكِنَّ الرِّضَا بِالْجَهْلِ سَهْلٌ)**؛ أي: يهون على المتكلم كلامه الذي تكلم به في ذم تلك العلوم رضاه بالجهل، فهو راضٍ بالجهل الذي دعاه إلى بُغض تلك العلوم.

ثم ذكر أن **(رِعَايَةَ فُنُونِ الْعِلْمِ)** **(تَنْفَعُ بِاعْتِمَادِ أَصْلِيْنِ)**:

(أَحَدُهُمَا: تَقْدِيمُ الْأَهَمِّ فَالْمِهْمِ)؛ أي: تقديم ما تشتد إليه الحاجة.

والحاجة المطلوبة هنا: هي وظائف العبودية لله.

فيقدم من العلم الذي يلتمسه ما يحتاجه في القيام لله بما عليه من العبادة، فهو يرى أن تعلم ما يتعلق بالإيمان وتوحيد الله عزَّوَجَلَّ مُقَدَّمٌ عنده؛ لشدة حاجته إليه، فإذا حصل أصلاً في توحيد الله توجه إلى طلب أصلٍ آخر من العلم في معرفة الطهارة والصلاة، ثم طلب ما بعده، فالمقصود بـ(المهم الذي تقدمه) هو نظرك إلى ما يلزمك في وظائف العبودية لله عزَّوَجَلَّ.

فمن الجهل المبين، والغبن المستبين أن يعدل ملتمس العلم عما يلزمه في وظائف العبودية لله إلى شيء لا يلزمه بعد، كأن يدرك حظاً مما نعتنا من معرفة توحيد الله عزَّوَجَلَّ وما يتصل

بالصلاة والطهارة من أحكام، ثم تتشوّف نفسه إلى دراسة أصول الفقه أو النحو أو غير ذلك، مُهملاً ما هو به أولى من معرفة معاني الفاتحة التي يقرأها وجوباً في كل صلاة، وإتقان قراءتها، أو معرفة أذكار الصباح والمساء، أو معرفة ما يقول من الأذكار في أدبار الصلوات المكتوبات، فإنّ هذا تضييع لهذا الأصل، وهو: تقديم الأهمّ فالمهمّ.

فمما تنتفع به في العلم: أن تُقدّم الأهمّ الذي يلزمك في وظائف العبودية، وتوجّل غيره إلى زمنه الصالح له، ولا يستطيع المتعلّم أن يستقل بمعرفة ذلك، فهو مفتقر إلى مرشدٍ يرشده. وكانت من وظائف المعلمين فيما سلف: إرشاد المتعلمين، فلم يكن المعلم يحبس نفسه في صلته مع المتعلّم على إلقاء العلم إليه فحسب؛ بل هو بمنزلة الوالد الرؤوف به، الذي يتلمّس له ما يصلح له، ثم يرشده إليه.

فينبغي أن ينتبه المتعلّم إلى هذه الحال، وهو أن يقدّم ما يلزمه بوظائف العبودية، ويجب على المعلمين أن يراعوا هذا في إرشادهم وتعليمهم ودالّتهم على الخير. والأصل الآخر: (أن يكون قصده في أوّل طلبه تحصيل مختصر في كل فن)؛ فيعمد إلى كل فن من الفنون المتعارف عليها في الاعتقاد والحديث، والتفسير، والفقه، والنحو، والأصول، ومصطلح الحديث وأشباهها، فيتلقى فيه مختصراً على الوجه الذي تقدّم؛ من حرصه على حفظه، وفهم معانيه.

قال: (حتّى إذا استكمل أنواع العلوم النافعة نظر إلى ما وافق طبعه منها وأنس من نفسه قدرة عليه، فتبحر فيه، سواء كان فناً واحداً أم أكثر)، فإذا فرغ من هذه الرتبة وهي: تحصيل متن مختصر في الفنون المتعارف عليها، نظر بعد ذلك إلى حاله من تلك الفنون، فإذا وجد أنسه بواحد منها أو أكثر وقدرته عليه قدّمه هو وغيره على غيرهما.

فلو قدر أن أحداً تعاطى العلوم فأدرك منها مختصراتها حفظاً وفهماً، ثم وجد في نفسه محبةً وميلاً إلى التفسير، وقوةً عليه مع رغبة في العلوم التي تعين عليه؛ كعلوم العربية، وعلوم

القرآن ونحوها، فأثرها على بقية العلوم كان هذا محموداً، فإن الناس في المعارك العالية لا يستون، والنابغ الذي يُحصّل مدارك العلوم لا يكون في الناس سوى الواحد بعد الواحد في مُدَدٍ متطاولةٍ، لكنّ القدر الذي يجتمع فيه الخلق هو حِرْصهم على تحصيل أصول العلوم، ثم إذا وجد في نفسه بعد ذلك محبةً لشيء منها - فنّ أو أكثر - وقُدرةً عليه نقل نفسه إلى هذا.

قال: (وَمِنْ طَيَّارٍ شِعْرِ الشَّنَاقِطَةِ قَوْلُ أَحَدِهِمْ:

وَإِنْ تُرِدْ تَحْصِيلَ فَنِّ تَمِّمَهُ وَعَنْ سِوَاهُ قَبْلَ الْإِنْتِهَاءِ مَهْ
وَفِي تَرَادُفِ الْعُلُومِ الْمَنْعُ جَا إِنْ تَوَأْمَانِ أَسْتَبَقَا لَنْ يَخْرُجَا

ومعنى قوله: (طَيَّارٍ شِعْرِ الشَّنَاقِطَةِ)؛ الطيَّار من الشعر: ما لا يُعرَفُ قائله مع شهرته، وإلى ذلك أشرت بقولي:

وشائِعُ الأبياتِ إن لم يُعلَمِ قائله الطَّيَّارُ بين الأُمَمِ

فالشعر الطيَّار هو الشعر الذي يسير بين الناس ولا يُعرَفُ قائله.

وفي هذين البيتين الإرشاد إلى جادة نافلة في العلم، فقال:

(وَإِنْ تُرِدْ تَحْصِيلَ فَنِّ تَمِّمَهُ)؛ يعني: أتمه.

(وَعَنْ سِوَاهُ قَبْلَ الْإِنْتِهَاءِ مَهْ): وهي كلمة زجر؛ أي: أزر نفسك مانعاً لها عن الدُّخول في غيره قبل تكميله.

(وَفِي تَرَادُفِ الْعُلُومِ الْمَنْعُ جَا)؛ أي: في جمع العلوم مترادفة جاء المنع.

(إِنْ تَوَأْمَانِ أَسْتَبَقَا لَنْ يَخْرُجَا): مُشَبَّهًا هَذِهِ الْحَالُ بِحَالِ أَمْرَةٍ تَضَعُ تَوَأْمِينَ - أي:

أثنين - فاستقبا - أي: أزدحما - على الخروج من بطن أمهما، فيعسر خروجها وتتعسر الولادة على أمهما، فكما يشقُّ على المرأة خروج التوأم إذا أزدحما وتحتاج إلى معونة؛ فكذلك فإنَّ جمع العلوم على الذهن يجعله مزدحماً، وربما أنقطع عن العلم، وفسد عليه فهمه لآزدحام العلوم فيه.

ومن المقولات السائرة في هَذَا الباب قولهم: «أزدحام العلوم مِضْلَةً الفهم»؛ أي يحصل بسببه خطأ في الفهم، فإذا أزدحمت العلوم تشوش فهم المتلقي، فالجادة السوية أن يجمع المتعلم نفسه على متنٍ أو فنٍّ لا يشاركه غيره، فإذا أراد - مثلاً - أن يقرأ «ثلاثة الأصول» لم يقرأ غيره في زمنه، فاشتغل بضبط هَذَا المتن حتى يفرغ منه، ثم أنتقل إلى غيره، وهَذِهِ طريقة المشاركة.

وأما المغاربة: فعندهم ما هو أشد من ذَلِكَ؛ فَإِنَّهم يمنعون الجمع بين الفنون، فيحبس المتعلم نفسه على علمٍ واحدٍ حتى يُتَمَّه، فلو قُدِّرَ أَنَّهُ أراد أن يدرس المعتقد قدم «ثلاثة الأصول»، ثم أتبعه بـ«كتاب التوحيد»، ثم أتبعه بـ«القواعد الأربع»، ثم أتبعه بـ«كشف الشبهات»، ثم أتبعه بـ«العقيدة الواسطية»، إلى تمام سُلْمِ التَّعليم في الاعتقاد، حتى يفرغ من علم الاعتقاد، ثم ينتقل إلى ما بعدها.

وطريقة المشاركة أرفق بالطالب وأنفع في وظائف العبودية؛ فإنه لا ينبغي حبس المتعلم على فنٍ واحدٍ مدَّةً تصل إلى سنةٍ مع إهماله ما يلزمه في وظائف عبوديته من اعتقاده وطهارته وصلاته وذكره لله سبحانه وتعالى.

ثم ختم بقوله: **(وَمَنْ عَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْجَمْعِ جَمَعٌ، وَكَانَتْ حَالُهُ أَسْتِثْنَاءً مِنْ الْعُمُومِ)؛ أي: مَنْ وجد قدرةً على الجمع فإنه يجمع بينها، ويكون حاله أَسْتِثْنَاءً من العموم، فالأصل في الخلق الاستقلال بفرنٍّ واحدٍ أو كتاب واحد.**

وإن وُجد منهم مَنْ له قدرة فأرشده مُعلِّمه إلى ما ينفعه فإنه يسلك هَذِهِ السبيل، وهَذَا الأمر شيءٌ نسبيٌّ يختلف فيه النَّاسُ، ولا يعرف المتعلم ما يصلح له؛ بل لا بدَّ له من مرشدٍ يُرشده، ولَمَّا اضطرب نسق التعليم وأزدحمت أموره حصل الخلل في المتعلمين، لَكِنِ ينبغي أن يجتهد طالب العلم على سلوك هَذِهِ الجادة، فَإِنَّهَا أنفع له في العلم وإن طالت.

فإنَّ من المتعلمين مَنْ يُحدِّث نفسه الآن: إذا جمعتُ نفسي على كتاب «ثلاثة الأصول» فبقيتُ فيه شهرين، فإنِّي أضيعُ برهةً من وقتي لا أنتفع بها؛ وهذا بناءٌ خطأ، بل جمعه نفسه على كتابٍ واحدٍ بإتقانه حفظاً وفهماً هو أسهلُّ له في أخذ العلم، فإنَّ الذي يُكثرُ على نفسه في المزاومة يضيع عليه وقته، فيقلُّ حظُّه من الحفظ والفهم.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد السابع

المبادرة إلى تحصيله، واغتنام سن الصبا والشباب

قال أحمد: «ما شبّهت الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط».

والعلم في سن الشباب أسرع إلى النفس، وأقوى تعلّقاً ولصوقاً.

قال الحسن البصري: «العلم في الصغر؛ كالنقش في الحجر».

فقوة بقاء العلم في الصغر كقوة بقاء النقش في الحجر، فمن اغتنم شبابه نال إزبه، وحمد

عند مشيبه سراه.

ألا اغتنم سن الشباب يا فتى عند المشيب يحمد القوم السرى

ولا يتوهم مما سبق أن الكبير لا يتعلم، بل هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

تعلموا كباراً؛ ذكره البخاري في (كتاب العلم) من «صحيحه»، وإنما يعسر التعلم في الكبر

- كما بينه الماوردي في «أدب الدنيا والدين» - لكثرة الشواغل، وغلبة القواطع، وتكاثر

العلائق؛ فمن قدر على دفعها عن نفسه أدرك العلم.



قال الشارح وفقه الله :

ذكر المصنف وفقه الله معقداً آخرًا من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: (المبادرة إلى

تحصيله) - أي: المسارعة إلى تحصيله -، (واغتنام سن الصبا والشباب) أي: أهتبال سنّ

الصبا والشباب غنيمَةً في طلبه.

ثم ذكر قول الإمام (أحمد: «مَا شَبَّهْتُ الشَّبَابَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَانَ فِي كُمِّي فَسَقَطَ»); أي: ما أعدُّ شبيهاً لسنِّ الشَّبَابِ التي كنت فيها إلا كشيءٍ كان في كُمِّي - أي: في طرف ثوبي من أسفل اليد - كان فيه مُدَّةٌ ثم سقط منه، فهو سريع التَّقْضِي، عَجَلُ الذَّهَابِ.

ثم قال: (وَالْعِلْمُ فِي سِنِّ الشَّبَابِ أَسْرَعُ إِلَى النَّفْسِ، وَأَقْوَى تَعَلُّقًا وَلُصُوقًا); لفراغ القلب من المُشغلات، فإنَّ القلب إذا فرغ من المُشغلات صفا، فإذا صار صافياً أمكن أن يعلَّقَ به ما ينفعه من العلم.

(قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «الْعِلْمُ فِي الصَّغَرِ؛ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ»); أي: هو بمنزلة النقش في الحجر قوةً وثبوتاً، فإنَّ الحجر إذا نُقِشَ فيه ثبت النقش فيه أكثر من ثباته في غيره.

قال: (فَقُوَّةُ بَقَاءِ الْعِلْمِ فِي الصَّغَرِ كَقُوَّةِ بَقَاءِ النَّقْشِ فِي الْحَجَرِ، فَمَنْ أُغْتَنِمَ شَبَابَهُ نَالَ إِزْبَهُ) - أي: بُغِيَّتَهُ وحاجتَهُ - (وَحَمْدٌ عِنْدَ مَشِيئِهِ سُرَاهُ); أي: حَمْدٌ عند مخالطتِهِ كهولةِ العمر بظهور الشيب فيه سُرَاهُ - أي: سعيه مجتهداً -، وأصل السُّرى: المسير في آخر الليل، يقال: (سرى فلان): خبراً عن أجهاده ونشاطه.

ثم أنشد بيتاً له قال فيه:

أَلَا أُغْتَنِمُ سِنَّ الشَّبَابِ يَا فَتَى عِنْدَ الْمَشِيئِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى

أي: إذا بلغوا سنَّ المشيب فرحوا بما حصلوا من العلم لما اجتهدوا في حال الشباب.

ثم دفع توهُمًا يلوح كثيراً في خيال كبار السنِّ مَنْ يروم تحصيل العلم، وهو أنهم لا يُدرِكون العلم، فقد صاروا في منأى عنه؛ فقال: (وَلَا يَتَوَهَّمُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الْكَبِيرَ لَا يَتَعَلَّمُ، بَلْ هُوَ لَأَيُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَلَّمُوا كِبَارًا؛ ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (كِتَابِ الْعِلْمِ) مِنْ «صَحِيحِهِ»); فجمعُ العلم وتحصيله والنبوغ فيه ممكنٌ للكبير، غير متعذِّرٍ عليه؛ متى أقبل عليه وعظَّم أجهاده فيه، ففي أخبار كثيرٍ من أهل العلم أنهم لم يطلبوا العلم إلا في عُمر متأخرة، ثم صاروا من البارعين فيه، كالقفال الشافعي صاحب التصانيف المشهورة في

الفقه، فإنه تأخر أخذه العلم حتى دخل الكبر وجاوز الأربعين أو أكثر، ثم برع في العلم حتى صنّف فيه وأشير إليه في العلم.

ثم بيّن ما يحول بين الكبير والعلم فقال: **(وَإِنَّمَا يَعْسُرُ التَّعَلُّمُ فِي الْكِبَرِ - كَمَا بَيَّنَّهُ الْمَأْوَرِدِيُّ فِي «أَدَبِ الدُّنْيَا وَالِدِّينِ» - لِكثْرَةِ الشَّوَاغِلِ، وَغَلَبَةِ الْقَوَاطِعِ، وَتَكَاثُرِ الْعَلَائِقِ)؛ فِعْلُ أَمْتِنَاعِ الْعِلْمِ عَلَى الْكِبَرِ ثَلَاثٌ:**

أولها: كثرة الشواغل؛ وهي العوارض المشغلة من زوج ووليد، وحاجة من حوائج الدنيا أو غيرها.

وثانيها: غلبة القواطع؛ أي كثرة الموانع التي تقطعه عن التماس العلم.

وثالثها: تكاثر العلائق؛ أي تتابع العلائق كثرةً، والمراد بالعلائق: الاتّصالات النفسانية بينه وبين نفسه، أو بينه وبين الخلق.

فالواردات النفسية التي ترد على العبد في حال الكبر فتشغله بنفسه أو تشغله نفسه بغيره كثيرة، وهذه العليل لا تكون مقارنةً حال الصبا والشباب، فلمّا سلّم الشاب من هذه العليل الثلاث صار أمكن في جمع العلم، ولمّا أختصّ وفودها بالكبير عسر عليه العلم لا أنه يستعصي عليه فلا يُدرّكه، لكن متى أحسن المعاملة مع هذه العليل حصل العلم، ولأجل هذا قال: **(فَمَنْ قَدَرَ عَلَى دَفْعِهَا عَنْ نَفْسِهِ أَدْرَكَ الْعِلْمَ)؛ أي: مَنْ قَدَرَ مِنَ الْكِبَرِ عَلَى دَفْعِ هَذِهِ الْعِلْلِ عَنْ نَفْسِهِ فَإِنَّهُ يُحْصِلُ الْعِلْمَ.**



قال المصنف وفقه الله :

المعقد الثامن

لزوم التآني في طلبه، وترك العجلة

إِنَّ مُحْصِيلَ الْعِلْمِ لَا يَكُونُ جُمْلَةً وَاحِدَةً؛ إِذِ الْقَلْبُ يَضْعُفُ عَنِ ذَلِكَ، وَإِنَّ لِلْعِلْمِ فِيهِ ثِقَلًا كَثَقَلَ الْحَجَرَ فِي يَدِ حَامِلِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ﴿٥٠﴾ [المزمل] أَي الْقُرْآنَ، وَإِذَا كَانَ هَذَا وَصْفُ الْقُرْآنِ الْمُيسَّرِ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر] -؛ فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ؟!!

وَقَدْ وَقَعَ تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ رِعَايَةً لِهَذَا الْأَمْرِ مُنْجِمًا مُفْرَقًا بِاعْتِبَارِ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿٣٢﴾ [الفرقان].

وَهَذِهِ الْآيَةُ حُجَّةٌ فِي لُزُومِ التَّأْنِي فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَالتَّدْرُجِ فِيهِ، وَتَرْكِ الْعَجَلَةِ؛ كَمَا ذَكَرَهُ الْحَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي «الْفَقِيهِ وَالْمُتَفَقِّه»، وَالرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ «جَامِعِ التَّفْسِيرِ». وَمَنْ شِعْرُ ابْنِ النَّحَّاسِ الْحَلَبِيِّ قَوْلُهُ:

الْيَوْمَ شَيْءٌ وَغَدًا مِثْلُهُ مِنْ نُحْبِ الْعِلْمِ الَّتِي تُتَقَطُّ

يُحْصَلُ الْمَرْءُ بِهَا حِكْمَةٌ وَإِنَّمَا السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقْطِ

وَمُقْتَضَى لُزُومِ التَّأْنِي وَالتَّدْرُجِ: الْبِدَاءُ بِالْمُتُونِ الْقِصَارِ الْمُصَنَّفَةِ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ حِفْظًا وَأَسْتِشْرَاحًا، وَالْمَيْلُ عَنِ مُطَالَعَةِ الْمُطَوَّلَاتِ الَّتِي لَمْ يَرْتَفِعِ الطَّالِبُ بَعْدُ إِلَيْهَا.

وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلنَّظَرِ فِي الْمُطَوَّلَاتِ فَقَدْ يَجْنِي عَلَى دِينِهِ، وَتَجَاوَزُ الْاِعْتِدَالِ فِي الْعِلْمِ رَبِّمَا أَدَّى إِلَى تَضْيِيعِهِ، وَمِنْ بَدَائِعِ الْحِكْمِ قَوْلُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الرَّفَاعِيِّ - أَحَدِ شُيُوخِ الْعِلْمِ بِدِمَشْقِ الشَّامِ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي -: «طَعَامُ الْكِبَارِ سُمُّ الصِّغَارِ».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر المصنّف وفقه الله معقداً آخرًا من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: **(لُزُومُ التَّنَائِي فِي طَلْبِهِ، وَتَرْكُ الْعَجَلَةِ)**؛ أي: لزوم الأناة - وهي السّكينة - في طلبه وترك العجلة، بأن يلتمس أخذه شيئاً فشيئاً.

وعلّله بقوله: **(إِنَّ تَحْصِيلَ الْعِلْمِ لَا يَكُونُ جُمْلَةً وَاحِدَةً)** - أي: لا يكون دفعة واحدة -، **(إِذِ الْقَلْبُ يَضْعُفُ عَن ذَٰلِكَ)** - أي: يلحقه ضعفٌ عن بلوغ هذا، ولا يقوى عليه -، **(وَإِنَّ لِلْعِلْمِ فِيهِ ثِقَلًا كَثَقَلَ الْحَجَرُ فِي يَدِ حَامِلِهِ)** أي: يجد القلب ثِقَلًا للعلم إذا أُلْقِيَ عليه كما يجد حامل الحجر ثِقَلَ الحجر في يده، فإنَّ مَنْ رَامَ رَفْعَ حَجَرٍ ثَقِيلٍ آنَسَ ثِقَلَهُ، فكذلك مَنْ أَرَادَ إِقْبَالَ الْعِلْمِ عَلَى قَلْبِهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً فَإِنَّ قَلْبَهُ يُؤَنَسُ ثِقَلَهُ، وكما أنَّ أَحَدَنَا إِذَا رَفَعَ حَجَرًا فَثَقُلَتْ يَدُهُ عَن حَمَلِهِ أَلْقَاهُ؛ فكذلك لِكَ الْقَلْبِ إِذَا ثَقُلَ عَن حَمْلِ الْعِلْمِ أَلْقَاهُ، وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ الْانْقِطَاعِ عَنِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ مُلْتَمِسِي الْعِلْمِ يَهْجُمُونَ عَلَى الْعِلْمِ فَيَرُومُونَ إِدْرَاكَهُ فِي مُدَّةٍ سِيرَةٍ، فَيَحْمَلُونَ قُلُوبَهُمْ مَا لَا تَحْتَمِلُ مِنَ الْحِفْظِ وَالْفَهْمِ، فَتَلْقَى عَنَاءً، فَتَلْقَى الْعِلْمَ عَنْهَا، فَيَرْجِعُ صَاحِبُهَا عَنِ الْإِسْتِمْرَارِ فِي طَلْبِ الْعِلْمِ، وَهُوَ الَّذِي جَنَى عَلَى نَفْسِهِ، فَعَوَظُ أَنْ يَبْتَدِرَ نَفْسَهُ بِحِفْظِ شَيْءٍ يَسِيرٍ يُحْمَلُ قَلْبَهُ شَيْئًا كَثِيرًا، فَإِذَا قِيلَ لَهُ: أَلْزِمِ حِفْظَ نِصْفِ وَجْهِهِ مِنَ الْقُرْآنِ؛ قَالَ: أَجْدُ مِنْ نَفْسِي قُدْرَةً عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ، فَحَمَلَّ قَلْبَهُ حِفْظَ وَجْهِهِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَسْتَطَاعَ ذَٰلِكَ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَسْبُوعٌ وَاحِدٌ حَتَّى يَنْقَطِعَ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ حَمَلَ قَلْبَهُ مَا لَا يَحْتَمِلُ مِنَ الثَّقَلِ.

وكما يُدْرَجُ الْبَدَنُ فِي تَقْوِيَّتِهِ؛ فَكَذَٰلِكَ يُدْرَجُ الْقَلْبُ فِي تَقْوِيَّتِهِ، فَمَنْ رَامَ أَنْ يَقْوِيَ بَدَنَهُ، مَارَسَ رِيَاضَةً، وَنَظَامًا غِذَائِيًّا خَاصًّا شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يَقْوِيَ بَدَنَهُ، وَكَذَٰلِكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقْوِيَ قَلْبَكَ فِي الْحِفْظِ يَنْبَغِي أَنْ تَأْخُذَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَاَلْمَبْتَدِئُونَ حِفْظَ نِصْفِ وَجْهِهِ مِنَ الْقُرْآنِ رَبَّمَا أَنْتَهَوْا إِلَى حِفْظِ وَجْهِهِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ نَفْسَهَا، وَلَمْ يَنْقَطِعُوا؛ لِأَنَّهُمْ أَخَذُوا نَفْسَهُمْ شَيْئًا فَشَيْئًا.

وكذلك في قوة القلب في الفهم، فهو لا يُحْمَلُ قلبه قدرًا كبيرًا من الفهم في يومه وليلته أو في أسبوعه؛ لئلا يضعف قلبه عن الإدراك لما يُلقى من العلم فيثقل عليه ويملّه، لكنّه يأخذه شيئًا فشيئًا حتى يتمكن منه.

وذكر ثقل العلم بدليل قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سُنِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل] أي (القرآن).

(وَإِذَا كَانَ هَذَا وَصْفُ الْقُرْآنِ الْمَيْسِرِ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر] -؛ فَمَا الظَّنُّ بغيرِهِ مِنَ الْعُلُومِ؟!؛ أي: إذا كان الثقل وصفا للقرآن في إلقائه على القلب فغيره من العلوم أولى؛ لأن القرآن وُصِفَ باليسر وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسِّرُهُ عَلَى الْخَلْقِ.

ثم قال: (وَقَدْ وَقَعَ تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ رِعَايَةً لِهَذَا الْأَمْرِ) - أي: مراعاة له - (مُنْجَمًا مُفَرَّقًا بِاعْتِبَارِ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ)، فلم يُنْزَلِ الْقُرْآنُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَفْعَةً وَاحِدَةً؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ مَحَلَّهُ مِنَ الْإِدْرَاكِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْقَلْبُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [١١٣] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [١١٤] [الشعراء].

فنزول القرآن محله القلب، فلمّا كان محله القلب والقرآن ثقیلاً؛ وقع إنزال القرآن مُنْجَمًا مُفَرَّقًا؛ قَالَ تَعَالَى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [٣٢] [الفرقان]؛ أي: ليكون ثابتاً في فؤادك، وفؤادك ثابتاً به، فيكون محفوظاً مَوْعِيًا مُدْرَكًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيثبت في قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويثبت به قلبُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: (مُنْجَمًا)؛ أي: في أوقات معينة، فأصل النجم: الوقت المضروب المعين.

ثم ذكر أن (هَذِهِ الْآيَةُ حُجَّةٌ فِي لُزُومِ التَّائِي فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَالتَّدرُّجِ فِيهِ، وَتَرْكِ الْعَجَلَةِ؛ كَمَا ذَكَرَهُ الْحَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي «الْفَقِيهِ وَالْمُتَفَقِّهِ»، وَالرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ «جَامِعِ التَّفْسِيرِ»؛ فهذان العالمان جعلوا هذه الآية دليلاً على أن العلم ينبغي أن يُتَأْتَى فِي أَخْذِهِ، وَأَنْ يُتَدَرَّجَ فِيهِ شَيْئاً فشيئاً.

ثم ذكر بيتين شهيرين لـ (أَبْنِ النَّحَّاسِ الْحَلَبِيِّ) - أحد علماء العربية -:

الْيَوْمَ شَيْءٌ وَغَدًا مِثْلُهُ مِنْ نُحْبِ الْعِلْمِ الَّتِي تُتَّقَطُّ
يُحْضَلُ الْمَرْءُ بِهَا حِكْمَةٌ وَإِنَّمَا السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقْطِ

أي إنما يكون السَّيْلُ - وهو الماء الكثير الهادر - من اجتماع نقط الغيث النازل من السماء، فإن سقط الغيث تجتمع شيئاً فشيئاً حتى يكثر هكذا الماء فيسيل سيلاً هادراً.

ثم قال: (وَمُقْتَضَى لُزُومِ التَّائِي وَالتَّدرُّجِ: الْبَدَاءَةُ بِالْمُتُونِ الْقِصَارِ الْمُصَنَّفَةِ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ حِفْظًا وَاسْتِشْرَاحًا، وَالْمَيْلُ عَنِ مُطَالَعَةِ الْمُطَوَّلَاتِ الَّتِي لَمْ يَرْتَفِعِ الطَّالِبُ بَعْدُ إِلَيْهَا)؛ فلا يكون أخذ العلم متأنياً مُتدرِّجاً حتى يستمسك بأصلين عظيمين:

أحدهما: أن يبدأ (بِالْمُتُونِ الْقِصَارِ الْمُصَنَّفَةِ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ)، وتكون بداءته بها بالحفظ والفهم؛ كما قال: (حِفْظًا وَاسْتِشْرَاحًا)، فتقصد إلى تلك المتون الموجزة المرتبة في أنواع العلوم، فتبدأ بها قبل غيرها.

فمثلاً: مَنْ رام أن يدرس علم الحديث فإنه يعمد إلى «الأربعين النووية» فيأخذها حِفْظًا وفهماً، فإذا عدل عنها إلى ما فوقها فترك «الأربعين النووية»، ولم يحفل بـ«عمدة الأحكام»، ولا رضي بـ«بلوغ المرام»، ولا يرى «رياض الصالحين» شيئاً، وقال: أنا لـ«بخاري» و«البخاري» لي؛ فهذا لا يُفْلِحُ أبداً؛ لأنَّ مَنْ دخل في شيء مقلوباً خرج منه مقلوباً، لَكِنْ مَنْ دخله على الوجه المرضي حاز منه بُغْيَتَهُ، فإذا أَلْتَمَسَ علم الحديث بأخذ «الأربعين النووية»

حفظاً وفهماً، ثم أتبعها بـ«عمدة الأحكام»، ثم ثلث بـ«عمدة الأحكام»، ثم رّبّع بـ«رياض الصالحين»، ثم تطلع إلى «البخاري»؛ أنتفع من أخذِه «البخاري»، وكان أخذُه له صحيحاً. والأصل الآخر: (الميلُ عن مُطالعةِ المطوّلاتِ التي لم يرتفع الطالبُ بعدُ إليها)؛ فلا يشتغل المتعلّم في حال ابتداء ألتماس العلم بالكتب المطوّلة التي لم يرتفع إليها في رتبته العلميّة، وإن زعم أنّه يصل إليها في رتبته الذهنية، فإن كثيراً من المتعلّمين يخدع نفسه بقوله: (إن لي عقلاً وأنا أفهم)؛، وليس هَذَا هو المراد في العلم، لكن المراد: هو بلوغك رتبة ذلك الكتاب في أخذك العلم.

فإنّه لو قدر أن أحداً يعرف القراءة ويُدرك عمَد إلى «مجموع فتاوى ابن تيمية»، فقرأ كلاماً؛ فإنه غالباً يفهم أكثره إن لم يفهمه جميعه، وليس هَذَا هو المراد، لكن المراد: أن تكون ألتك العلميّة كاملة لقراءة هَذَا الكتاب، فإن من يقرأ هَذِهِ المطوّلات بعد أكتمال آلتة العلميّة يعظّم أنتفاعه بها، ويعرف مواقع العلم والقول فيها، فيردّها إلى الأصول التي تأكّدت في قلبه بالحفظ والفهم.

فمما يلحق به الخيبة والخسران طالب العلم: أن يعتمد إلى هَذِهِ المطوّلات قبل بلوغه إيّاها في الرتبة العلميّة، فيقبّل عليها بالمطالعة؛ فإن ذلك يعود عليه بالعجز والثقل والانقطاع عن العلم، أو يؤلّد فيه أقوالاً فاسدةً لضعف آلة الفهم عنده.

ولا نقصد بـ(آلة الفهم) مجرد الإدراك؛ لكن نقصد بذلك: بلوغ عقله الرتبة الذهنية للعلوم بفهم مواقع القول في العلم، وإلا فالناس - كما سلف - يفهمون عادةً ما يُسمَع أو يُلقَى إليهم من الكلام، لكن مآل ذلك من مدارك الفهم في الأحكام لا يصل إليها إلا من بلغ تلك الرتبة فيه.

ثم قال: (ومن تعرّض للنظر في المطوّلات فقد يجني على دينه، وتجاوز الاعتدال في العلم ربّما أدى إلى تضييعه) - أي: تجاوز حدّ الاعتدال في أخذ العلم ربّما يؤدي إلى تضييعه -،

(وَمِنْ بَدَائِعِ الْحِكْمِ قَوْلُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الرَّفَاعِيِّ - أَحَدِ شُيُوخِ الْعِلْمِ بِدَمَشَقِ الشَّامِ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي -: «طَعَامُ الْكِبَارِ سُمُّ الصَّغَارِ»); أي: ما يتناوله الكبار فينتفعون به من طعام هو للصغار سُمٌّ يموتون به؛ فإنك لو أتيت إلى صغير بطعام يُجَعَلُ للكبار عادةً - من أرز، ولحم، وشحم - فجعلت تدفعه في فيّ هذا الرضيع الذي ليس له إلا يوم أو يومين، أو شهر أو شهرين، فإنه يموت؛ لعجز معدته عن قبول هذا الطعام، وإن لم يمِتْ مرضاً شديداً. ولذلك جرت عادة الناس في ترقية الصغار في الطعام أن يدفعوا إليه أوّلاً الحليب مدةً، ثم ينقلوه بعد مدة إلى أنواع من الغذاء مرتبة، حتى يبلغ بعد سنين طويلة القدرة على أن يأكل الشحم واللحم.

فكَذَلِكَ مَنْ يَلْتَمِسُ الْعِلْمَ إِذَا أَشْغَلَ نَفْسَهُ بِطَعَامِ الْكِبَارِ فَيُدْعَى إِلَى دَرَسٍ فِي «ثَلَاثَةِ الْأَصُولِ» يَقُولُ: لا. أنا أحضر. درساً في «الروض المربع»، أو يُدْعَى إِلَى دَرَسٍ فِي «الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ» يَقُولُ: لا. أنا أحضر. درساً في «صحيح البخاري»، وهو بعد لم يأخذ من الفقه ولا من الحديث بنصيبٍ، ولا قرأ مختصرات هذه الفنون، فمثل هذا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ بِتَنَاوُلِهِ طَعَامَ الْكِبَارِ لِمَا يُفْسِدُ قَلْبَهُ وَيَمْنَعُهُ الْعِلْمَ.

هَذَا مَعْنَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ، وَهُوَ أَنَّ تَعَرُّضَ الْمُتَعَلِّمِ لِمَا لَا يَصْلِحُ لَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُطَوَّلَةِ يُفْسِدُ عِلْمَهُ، وَلَيْسَ الْمَرَادُ - كَمَا يَفْهَمُهَا بَعْضُهُمْ -: أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهَا هِيَ: حَمْلُ النَّاسِ عَلَى عَدَمِ التَّلَقِّيِ عَلَى الْعُلَمَاءِ الْكِبَارِ، وَأَنَّ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ تَزْهِيداً فِيهِمْ، فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ؛ إِلَّا مَنْ وَقَعَ فِي فَهْمِهِ هَذَا الْفَهْمَ فَرَأَهُ مَعْنَى لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ.

فَالْمُتَكَلِّمُونَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ يَرِيدُونَ هَذَا الْمَعْنَى: وَهُوَ أَنَّ الْمُبْتَدِئَ فِي الْعِلْمِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَبْتَدَأَ بِصَغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ، وَإِذَا تَعَرَّضَ لِلْكِبَارِ أَفْسَدَتْهُ، سِوَاءً أَخَذَهُ عَنِ الْكِبَرِ الْعُلَمَاءِ أَوْ أَصْغَرَ الْمُعَلِّمِينَ، فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ أَحَدًا أَبْتَدَأَ فِي الْعِلْمِ عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ بِ«فَتْحِ الْبَارِي» وَ«مَجْمُوعِ

أبن تيمية»، و«تفسير أبن كثير»؛ فإنه يموت في العلم ولا يستفيد، ولو أبتدأ عنده ب«ثلاثة الأصول»، و«الأربعين النووية» وأشباهها من المختصرات فإنه ينتفع أنتفاعاً كثيراً.



قال المصنف وفقه الله :

المَعْقِدُ التَّاسِعُ الصَّبْرُ فِي الْعِلْمِ تَحْمُلًا وَأَدَاءً

إِذْ كُلُّ جَلِيلٍ مِنَ الْأُمُورِ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالصَّبْرِ، وَأَعْظَمُ شَيْءٍ تَتَحَمَّلُ بِهِ النَّفْسُ طَلَبُ الْمَعَالِي: تَصْبِيرُهَا عَلَيْهِ، وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ وَالْمُصَابَرَةُ مَأْمُورًا بِهِمَا لِتَحْصِيلِ أَصْلِ الْإِيمَانِ تَارَةً، وَلِتَحْصِيلِ كَمَالِهِ تَارَةً أُخْرَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٢٠٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «هِيَ مَجَالِسُ الْفِقْهِ». وَلَنْ يُحْصَلَ أَحَدُ الْعِلْمِ إِلَّا بِالصَّبْرِ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ أَيْضًا: «لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ». فَبِالصَّبْرِ يُخْرَجُ مِنْ مَعْرَةِ الْجَهْلِ، وَبِهِ تُدْرِكُ لَذَّةُ الْعِلْمِ. وَصَبْرُ الْعِلْمِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: صَبْرٌ فِي تَحْمُلِهِ وَأَخْذِهِ؛ فَالْحِفْظُ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، وَالْفَهْمُ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، وَحُضُورُ مَجَالِسِ الْعِلْمِ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، وَرِعَايَةُ حَقِّ الشَّيْخِ تَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ. وَالنَّوْعُ الثَّانِي: صَبْرٌ فِي آدَائِهِ وَبَثِّهِ وَتَبْلِيغِهِ إِلَى أَهْلِهِ؛ فَالْجُلُوسُ لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، وَإِفْهَامُهُمْ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، وَأَحْتِمَالُ زَلَّتِهِمْ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ. وَفَوْقَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنْ صَبْرِ الْعِلْمِ الصَّبْرُ عَلَى الصَّبْرِ فِيهِمَا وَالثَّبَاتُ عَلَيْهِنَّ. لِكُلِّ إِلَى شَأْوِ الْعُلَا وَثَبَاتٌ وَلَكِنْ عَزِيزٌ فِي الرِّجَالِ ثَبَاتٌ



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر المصنّف وفقه الله معقداً آخرًا من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: **(الصَّبْرُ فِي الْعِلْمِ**

تَحْمَلًا وَأَدَاءً).

والمراد بـ (تَحْمَلُ الْعِلْمِ): جمعه وطلبه.

والمراد بـ (أداء العلم): تبليغه وبنه.

فصاحب العلم مفتقرٌ إلى الصبر فيه ابتداءً وانهاءً، فإن التحمُّلُ حالُ ابتداء، والأداء حالُ

أنتهاء.

قال: **(إِذْ كُلُّ جَلِيلٍ مِنَ الْأُمُورِ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالصَّبْرِ، وَأَعْظَمُ شَيْءٍ تَتَحَمَّلُ بِهِ النَّفْسُ طَلَبُ**

الْمَعَالِي: تَصْبِيرُهَا عَلَيْهِ)؛ أي: لا يمكن للعبد أن ينال أمرًا من الأمور العظيمة إلا بأن يجبس

نفسه عليه حتى يدركه، قال: **(وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ وَالْمُصَابَرَةُ مَأْمُورًا بِهِمَا لِتَحْصِيلِ أَصْلِ**

الْإِيمَانِ تَارَةً، وَلِتَحْصِيلِ كَمَالِهِ تَارَةً أُخْرَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا

وَصَابِرُوا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٢٠٠])، ففي الآية الأمر بالصبر من جهتين:

إحداهما: الصبر في النفس بلا مدافعة، في قوله: **﴿أَصْبِرُوا﴾**.

والآخر: الصبر في النفس مع المدافعة، في قوله: **﴿وَصَابِرُوا﴾**.

فإنَّ (المفاعلة) تكون مع آخر سواه، فالمصابرة، والمقاتلة، والمراغمة تكون مع طرف

آخر، فالعبد مأمور بالصبر في نفسه إن تجرّدت عن مدافع يُنازعها، ومأمور بالصبر مع وجود

المنازع المدافع.

ثم ذكر قوله تعالى: **﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ**

وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ: «هِيَ مَجَالِسُ الْفِقْهِ»، فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بأن يصبر في العلم أداءً، وأولئك مأمورون بالصبر في العلم تحملاً.

قال: (وَلَنْ يُحْصَلَ أَحَدُ الْعِلْمِ إِلَّا بِالصَّبْرِ).

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ أَيْضًا: «لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ»؛ فلا بد من بذلٍ يتعنى به البدن.

قال: (فِالصَّبْرِ يُخْرَجُ مِنْ مَعْرَةِ الْجَهْلِ)؛ فإذا صبر ملتمس العلم خرج من عيب الجهل، فإنه لا يخرج من معرفة الجهل ونقصه بمجرد أن يشتهي العلم فينال، لكنه يحتاج إلى صبر في العلم، فهو يصبر على الحفظ، ويصبر على الفهم، ويصبر على الجلوس في الدرس، ويصبر على الذهاب إلى الدرس، ويصبر على استذكار هذا الدرس.

قال: (وَبِهِ تُدْرِكُ لَذَّةُ الْعِلْمِ)؛ أي: لا يبلغ العبد لذة العلم حتى يكون له صبر، فإن المطالب العالية من اللذات السامية يكون أول مبدئها الصبر، ومن هنا قال بعض فلاسفة اليونان: «الفضائل مرّة الأوائل، حلوة الأواخر»؛ أي: يجد صاحبها مرارةً في ابتداء أبتغائها، ثم تنقلب هذه المرارة بعد إلى حلاوة بما ينال من عاقبة حميدة للفضيلة التي اشتغل بها، ومن جملة تلك الفضائل: العلم؛ فالمرء في ابتداء أخذه العلم يجد مرارةً، فأنت الآن ربما تجد مرارةً في أنك تجلس هذه المدة في الدرس ويجلس غيرك في اللهو، أو في دعوات الخلق في مناسباتهم، أو غير ذلك من الأمور التي تنزعك وتريد إخراجك من هذه الحلقة إلى غيرها من مطالب النفس ورغباتها، ومراغمتك هذه الآفة التي ترد على نفسك تجد بها مرارةً، فإذا أستويت على مطلوبك وأمعنت فيه حمدت عاقبتك، ووجدت من اللذة العاجلة والآجلة في العلم ما لا يجده أولئك الذين يضيعون أعمارهم وقدرهم فيما لا ينفعهم، أو فيما ينفعهم لكن غيره أنفع لهم منه.

ثم ذكر صبر العلم فقال: (وَصَبْرُ الْعِلْمِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: صَبْرٌ فِي تَحْمَلِهِ وَأَخْذِهِ).

(والنوع الثاني: صبر في أدائه وبثه وتبليغه إلى أهله).

فالعلم يحتاج إلى صبر في المبتدأ تحملاً وأخذاً، ويحتاج صبراً في المنتهى تعليماً وبثاً. ثم ذكر حال الأول فقال: (فالحفظ يحتاج إلى صبر)؛ فأنت تحتاج إلى مدة تجعلها للتحفظ. قال: (والفهم يحتاج إلى صبر)؛ فأنت تعيد النظر وتجميل الفكر في ما تروم فهمه، وهذا يحتاج إلى صبر.

قال: (وحضور مجالس العلم يحتاج إلى صبر، ورعاية حق الشيخ تحتاج إلى صبر)؛ فالشيخ له حق، وحتى ترعاه وتقوم به تحتاج إلى صبر عليه، فإن النفس قد تنزعك إلى خلاف ذلك. ثم قال في صبر الأداء والبث: (فالجُلوس للمتعلمين يحتاج إلى صبر)؛ فإن الجلوس للمتعلمين لا يحصل للعبد مجرداً بلذة يناها؛ لأن هذه اللذة تكون في مبتدأ جلوسه، شهراً وشهرين، وسنة وستين، فما هي إلا مدة ثم ينقطع ويترك التعليم؛ لأن الجلوس للمتعلمين يصاحبه انقطاع المرء عن مطالب أخرى لنفسه، فيحتاج إلى أن ينزع نفسه من تلك المطالب وأن يجلسها في نفع المتعلمين.

قال: (وإفهامهم يحتاج إلى صبر)؛ فإن مدارك الناس تختلف، وقد تلقي مسألة فيفهمها هذا ولا يفهمها آخر، فإذا رغب منك أن تعيد تلك المسألة ليفهمها كان هذا من حقه عليك، فينبغي أن تصبر في إفهامه هذه المسألة.

قال: (وأحتمال زلاتهم يحتاج إلى صبر)؛ فإن الزلّة تقارن الآدمية، ومما يقع من الزلات: زلات المتعلمين مع المعلمين، ولا يُستغرب صدور هذا؛ لأن هذا مقارن للآدمية، ومن تصدى لنفع الناس في التعليم؛ فينبغي أن يعود نفسه الصبر على زلات المتعلمين. فإن من المعلمين من ينقطع تحت دعوى أن عامة ملتمسي العلم اليوم صاروا يُخلون بأدبه، وهذا ليس عُذراً له؛ بل الواجب عليه أن يُقومهم بالآداب الحسنة، وأن يصبر على ما يقع منهم من الزلات.

ثم قال: (وَفَوْقَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنْ صَبْرِ الْعِلْمِ الصَّبْرُ عَلَى الصَّبْرِ فِيهِمَا وَالثَّبَاتُ عَلَيْهِمَا)؛ فإذا صبرت في التَّحْمَلِ فتحتاج إلى مزيد من الصبر عليه، وإذا صبرت في الأداء فتحتاج إلى مزيد من الصبر عليه، فلا يزال الصبر معك حتى تلقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنَّ الصبر أعظم الآلة التي تُحَصِّلُ بها المراتب العالية، ولا ينال العبد مرتبة عالية في الدنيا والآخرة حتى يكون صبوراً، وَمَنْ لَا يَكُونُ صَبُورًا فَإِنَّهُ لَا يُجْرِزُ تِلْكَ الْمَطَالِبَ الْعَالِيَةَ.

ولذلك أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير مرة بالصبر في خاصة نفسه، ف قيل له: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقيل: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، كما أنه شمله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فأمر بالصبر وأعيد عليه؛ لأنَّ مرتبة النبوة العالية في الدنيا، وما يكون له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المقامات العالية في الآخرة = لن يناله إلا بالصبر.

ثم أنشد قول الشاعر:

لِكُلِّ إِلَى شَأٍ الْعُلَا وَثَبَاتٌ

أي: لكل إلى غاية العلا و ثبات - أي: قفزات.

وَلَكِنْ عَزِيزٌ فِي الرَّجَالِ ثَبَاتٌ

أي: يعز في الرجال الثبات.

وذكر الرجال خرج مخرج الغالب، وإلا فإنه في الخلق كافة، فَيَعِزُّ فِي الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ أَنْ يَثْبُتُوا عَلَى مَطْلُوبَاتِهِمْ.

وقلت في آخر «منظومة الهداية»:

إِنَّ الثَّبَاتَ فِي الرَّجَالِ عَزَا وَيَعْنَمُ الرَّجَالُ مِنْهُ الْعِزَّا

(عَزَا)؛ يعني: قل.

(وَيَغْنَمُ الرَّجَالُ مِنْهُ الْعِزًّا)؛ أي: إذا صبروا فإنهم يغنمون عزَّ الدنيا والآخرة.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد العاشر ملازمة آداب العلم

قال ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين»: «أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما أستجلب خيراً الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا أستجلب حرمانهما بمثل قلة الأدب».

والمرء لا يسمو بغير الأدب وإن يكن ذا حسب ونسب

وإنما يصلح للعلم من تأدب بأدابه في نفسه ودرسه، ومع شيخه وقريته.

قال يوسف بن الحسين: «بالأدب تفهم العلم».

لأن المتأدب يرى أهلاً للعلم فيندل له، وقليل الأدب يعز العلم أن يضيع عنده.

ومن هنا كان السلف رحمهم الله يهتمون بتعلم الأدب كما يهتمون بتعلم العلم.

قال ابن سيرين: «كأنوا يتعلمون الهدى كما يتعلمون العلم».

بل إن طائفة منهم يقدمون تعلمه على تعلم العلم.

قال مالك بن أنس لفتى من قرئش: «يا ابن أخي؛ تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم».

وكأنوا يظهرون حاجتهم إليه.

قال مخلد بن الحسين لابن المبارك يوماً: «نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من

العلم».

وكأنوا يوصون به، ويرشدون إليه.

قال مالك: كانت أمي تعممني وتقول لي: «أذهب إلى ربيعة - تعني ابن عبد الرحمن

فقيه أهل المدينة في زمنه - فتعلم من أدبه قبل علمه».

وَإِنَّمَا حُرِّمَ كَثِيرٌ مِنْ طَلَبَةِ الْعَصْرِ الْعِلْمَ بِتَضْيِيعِ الْأَدَبِ.
 أَشْرَفَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى أَصْحَابِ الْحَدِيثِ، فَرَأَى مِنْهُمْ شَيْئًا كَأَنَّهُ كَرِهَهُ فَقَالَ: «مَا
 هَذَا؟»، أَنْتُمْ إِلَى يَسِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ». **هَذَا؟**
فَمَاذَا يَقُولُ اللَّيْثُ لَوْ رَأَى حَالَ كَثِيرٍ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْعَصْرِ؟!



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

ذكر المصنّف وفّقهُ اللهُ معقداً آخرًا من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: **(مُلَازِمَةُ آدَابِ الْعِلْمِ)**؛
 لأنّ وفور الأدب - يعني: كثرته وتتابعه - من أسباب السعادة، وقلة الأدب من أسباب
 الشقاوة.

وذكر تصديق ذلك في قول ابن القيم: **(«أَدَبُ الْمَرْءِ عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ، وَقِلَّةُ آدَبِهِ
 عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ وَبَوَارِهِ»)**؛ والعنوان: اسمٌ لما يدلُّ على الشّيء، فمما يدلُّ على سعادة العبد
 وفلاحه: أدبه، ومما يدلُّ على شقاوته وبواره - يعني: خسارته - قلة أدبه.

ثم قال: **(«فَمَا أُسْتَجَلِبَ»)** - أي: حُصِّلَ - **(«خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمِثْلِ الْأَدَبِ، وَلَا
 أُسْتَجَلِبَ حِرْمَانُهُمَا بِمِثْلِ قِلَّةِ الْأَدَبِ»)**؛ فيحصّل خير الدنيا والآخرة بسلوك الأدب، ويُفقد
 الخير ويحظى العبد بالحرمان إذا قلّ أدبه.

وَالْمَرْءُ لَا يَسْمُو^(١) بِغَيْرِ الْأَدَبِ وَإِنْ يَكُنْ ذَا حَسَبٍ وَنَسَبٍ

(١) أي: لا يعلو.

ثُمَّ قَالَ: (وَإِنَّمَا يَصْلُحُ لِلْعِلْمِ مَنْ تَأَدَّبَ بِآدَابِهِ) - أي: بآداب العلم - (فِي نَفْسِهِ وَدَرْسِهِ،
وَمَعَ شَيْخِهِ وَقَرِينِهِ)، فميادين أدب العلم أربعة:

أحدها: أدب النفس.

وثانيها: أدب الدرس.

وثالثها: الأدب مع الشيخ.

ورابعها: الأدب مع القرين؛ وهو: الزميل المشارك.

ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَ: (يُوسُفَ بْنِ الْحُسَيْنِ: «بِالْأَدَبِ تَفْهَمُ الْعِلْمَ»)، وَمِنْ مَعَانِي هَذَا مَا بَيَّنَّهُ بِقَوْلِهِ:
(لَأَنَّ الْمُتَأَدِّبَ يَرَى أَهْلًا لِلْعِلْمِ فَيُبْذَلُ لَهُ، وَقَلِيلُ الْأَدَبِ يُعَزُّ الْعِلْمُ أَنْ يُضَيِّعَ عِنْدَهُ)، فَإِنَّ
الشيوخ المعلمين إذا رأوا المتعلم متأدبًا بذلوا له العلم؛ لأنهم يرونه أهلًا له، وإذا رأوه قليل
الأدب أكرموا العلم أن يضيّعوه فحبسوه عنه؛ فالتأدب يفهم العلم بأن يُلقَى إليه على وجه
يُدركه، وقليل الأدب يمنعه المعلمُ حظَّه من العلم بسبب سوء أدبه.

فتجد المسألة الواحدة يسأل عنها رجلان، فيسأل أحدهما شيخه بأدب فيجيبه عنه،
ويسأل الآخر شيخه بغير أدب فيمنعه منها، فإنه ليس من إكرام العلم وإعظامه أن يجيبها
مع أفتراق حالهما؛ فإذا جاء الأول فقال: أحسن الله إليكم، ذكرتم كذا وكذا، وأشكل عليّ
قوله تعالى كذا وكذا، فيجيبه الشيخ ويدلُّه على ما يرتفع به الإشكال، فإذا تبعه آخر فقال
مُعَنَّفًا للشيخ: إنكم تقولون قولًا يخالف قول الله، ونحن نتبع قول الله ولا نتبع قولك، قال:
الله يوفقك، فهذا هو المعلم العاقل، يُعرض عنه حتى يتأدب، فإذا تأدب دلَّه على العلم، ولا
يُقبل عليه فيقول: لا. هذه الآية معناها كذا وكذا، والكلام الذي ذكرناه وجهه كذا وكذا؛
لأنه لا يراه أهلًا لحمل العلم، وأمَّا الأول فإنه يرى أهلًا لحمل العلم فيدلُّه على ما ينفعه من
العلم.

ثم قال: (وَمِنْ هُنَا كَانَ السَّلْفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَهْتَمُّونَ بِتَعَلُّمِ الْأَدَبِ كَمَا يَهْتَمُّونَ بِتَعَلُّمِ الْعِلْمِ)؛ أي: بلغت العناية بالأدب عندهم الإقبال عليه كالحال التي يُقبل بها على العلم، وأعتبر البون الواسع والفرق الشاسع بين حالنا وحالهم؛ فإن كثيرا من المتعلمين يُقبلون وحادا وزرافاتٍ على دروسٍ في العلم، فإذا ذكرت لهم دروس الآداب رأوا أنّها ممّا لا يُضَيِّع الوقت فيه، وهم الضائعون بإهمالهم تلك الآداب سواء ممّا يتعلق بآداب العلم أو ما يتعلق بغير ذلك من الآداب في الإسلام كافة.

ولذلك تجد كثيرا من المتعلمين إذا ذُكر له درس في آداب السلام أو آداب الطعام لم يحفل به؛ ظنا منه أنه قد ارتفع عن هذه الرتبة، فإذا جئته فسألته مسألة واحدة من مسائل أدب الطعام: هل الأدب المذكور في ألتقاط اللقمة إذا وقعت يتعلّق بلقمة تامّة، أو بأفراد من الطعام؟.. سكت، وأنقطع عن العلم بها، وهذا دليل جهله؛ لأنه لو كان يعرف للأدب رتبته لحرص على تعلّم آداب الطعام.

فينبغي أن يعتني طالب العلم بالآداب ممّا يتعلّق بالعلم خاصة، أو ما يتعلّق بالدين كافة، فإنك إذا ضيّعت الآداب ضيّعت الدين، فإن الآداب من جملة الدين، وإذا قويت الآداب في النفس قويت النفس على طلب الدين، وإذا ضعفت الآداب في النفس ضعفت النفس عن طلب الدين والعمل به.

ثم ذكر من آثارهم في الاعتناء بتعلّم العلم قول (أبْنِ سِيرِينَ) - وهو أحد التابعين -: «كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الْهُدْيَ» - أي: الأدب - «كَمَا يَتَعَلَّمُونَ الْعِلْمَ»؛ أي: يجعلونه بهذه المنزلة.

قال: (بَلْ إِنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُقَدِّمُونَ تَعَلُّمَهُ عَلَى تَعَلُّمِ الْعِلْمِ. قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ لِفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ: «يَا أَبْنَ أَخِي؛ تَعَلَّمِ الْأَدَبَ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ»؛ لأنّ الأدب وسيلة العلم.

وكان من الجاري في حلق أهل العلم أن يُقدِّموا تعليم الأدب على تعليم العلم، فإذا ورد عليهم متعلِّمٌ لِقنوه آداب العلم إمَّا إلقاءً وإمَّا بإقراء كتاب مختصرٍ في أدب العلم، كتعليم المتعلم» للزرنوجي، أو «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة، ثم نقلوه بعد ذلك إلى العلم. قال: (وَكَانُوا يُظْهِرُونَ حَاجَتَهُمْ إِلَيْهِ).

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ لِابْنِ الْمُبَارَكِ يَوْمًا: «نَحْنُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ».

وَكَانُوا يُوصُونَ بِهِ، وَيُرْشِدُونَ إِلَيْهِ.

قَالَ مَالِكٌ: كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي ^(١) وَتَقُولُ لِي: «أُذْهَبُ إِلَى رَبِيعَةَ - تَعْنِي ابْنَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَقِيهَةَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي زَمَانِهِ - فَتَعَلَّمُ مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ»، فَوَجَّهَتْ أُمَّهُ عِنَايَتَهُ إِلَى الْأَمْرِ الْأَعْظَمِ، وَهُوَ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْأَدَبَ قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ.

قال: (وَإِنَّمَا حُرِّمَ كَثِيرٌ مِنَ طَلَبَةِ الْعَصْرِ الْعِلْمِ بِتَضْيِيعِ الْأَدَبِ)؛ أي: من أكبر العِلل التي أوهنت طلاب العلم فحرموا العلم في عصرنا هَذَا: تضييع الأدب، فهم لا يعنون به تعلُّمًا، ولا يعنون به إقامةً وتطبيقًا.

قال: (أَشْرَفَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى أَصْحَابِ الْحَدِيثِ، فَرَأَى مِنْهُمْ شَيْئًا كَأَنَّهُ كَرِهَهُ فَقَالَ: «مَا هَذَا؟، أَنْتُمْ إِلَى يَسِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ») - أي: قليل من الأدب - («أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ»)؛ لأنَّ قليلَ العلم مع كثيرِ الأدب ينفع ويرفع، وكثيرَ العلم مع قليلِ الأدب لا ينفع ولا يرفع.

(١) أي: تلبسني العمامة؛ حتى يحاذي في صورته الكبار مع صغر سنه؛ فإن العمامة شعارٌ لمن تقدَّمت به السنُّ

وأرتفع عن سنِّ الصُّغار.

قال: (فَمَاذَا يَقُولُ اللَّيْثُ لَوْ رَأَى حَالَ كَثِيرٍ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْعَصْرِ؟!؛ أي: أيُّ شيء يقوله الليث عوض ما ذكره لو رأى الحال التي عليها الناس اليوم في أدب العلم؟، لقال ما هو أعظم من هذه المقالة.

وإذا نُصِح العبد بما يدرُّه ويرشده على الأدب فإنه ينبغي أن يحمل نفسه عليه، وأن يأخذ به أخذًا حسنًا؛ لأنَّ حُسن حالك في الدنيا والآخرة في العلم عاجلاً وفي المال آخراً يكون على قدر أدبك.

وأحرص على تتبع أبواب الأدب في أدب الكلام، وأدب السلام، وأدب الطعام، فلتكن من العلم الذي يعينك.

ومَّا يُضْرَبُ به المثل على ما تقدَّم من تقديم غير المهم على الأهم: أن تجد طالب علمٍ يقرأ «الورقات» و«الآجرامية» وهو لم يقرأ قطُّ متناً في الأدب!!، فهو لا يعرف ما يجب عليه من حق السلام والاستئذان... فتجد فيه ما هو خلاف الأدب، فأنت ترى من المتعلمين مَنْ يأت مباشرةً ويفتح الباب دون استئذان ووقوف عند الباب، وأن يطرق ثلاثاً!، فأئى علمٍ ناله ولو كان قرأ «الورقات» و«الآجرامية»؟! إذا كان شيء من الآداب الشرعية المتعارف عليها ممَّا يتكرر في اليوم واللييلة لا يعرفه.

فينبغي أن يعرف طالب العلم ما ينبغي أن يعتني به في وظائف العبودية، ومن جملتها: الآداب، وأن يُنزلها منزلتها حتى يُحقق العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن جمع العلم لا يُراد لذاته، وإنما يُراد لتكميل مقام العبودية عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإنما كان العلماء ورثة الأنبياء، وأعلى الناس بعد الأنبياء مقامًا؛ لكمال حالهم بالعلم في العبودية، فإنهم لما أخذوا العلم وجمعوه وأستعملوه كملت حالهم في العبودية فرفعهم الله عَزَّوَجَلَّ عنده.

فطالب العلم إنما يلتبس من طلب العلم أن يُحَقِّقَ العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، فهو يتعرف
وظائف العبودية ويتلمسها، ثم يُعْمِلُهَا في نفسه.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد الحادي عشر
صيانة العلم عما يشين؛
مما يخالف المروءة ويخرمها

مَنْ لَمْ يَصْنِ الْعِلْمَ لَمْ يَصْنِهِ الْعِلْمُ - كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ -، وَمَنْ أَحَلَّ بِالْمُرُوءَةِ بِالْوُقُوعِ فِيهَا يَشِينُ فَقَدْ اسْتَخَفَّ بِالْعِلْمِ، فَلَمْ يُعْظَمْهُ وَوَقَعَ فِي الْبَطَالَةِ، فَتَفْضِي بِهِ الْحَالُ إِلَى زَوَالِ أَسْمِ الْعِلْمِ عَنْهُ.

قال وهب بن منبه: «لا يكون البطال من الحكماء».

وجماع المروءة - كما قاله ابن تيمية الجدي في «المحرر»، وتبعه حفيده في بعض فتاويه - :
«استعمال ما يجمله ويزينه، وتجنب ما يدنسه ويشينه».

قيل لأبي محمد سفيان بن عيينة: قد استنبطت من القرآن كل شيء، فأين المروءة فيه؟

قال: «في قوله تعالى: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛
ففيه المروءة، وحسن الأدب، ومكارم الأخلاق».

ومن ألزم أدب النفس للطالب: تحليه بالمروءة، وما يحمل عليها، وتنبهه خوارمها التي تُخل بها؛ كحلق لحيته، أو كثرة الالتفات في الطريق، أو مد الرجلين في مجمع الناس من غير حاجة ولا ضرورة داعية، أو صحبة الأراذل والفساق والمجان والبطالين، أو مصارعة الأحداث والصغار.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر المصنّف وفّقهُ اللهُ معقداً آخرًا من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: **(صِيَانَةُ الْعِلْمِ عَمَّا يَشِينُ)** - أي: حفظ العلم عمّا يقبُح -؛ **(مِمَّا يَخَالِفُ الْمُرُوَّةَ)** - أي: يباينها ويخالفها - **(وَيَخْرُمُهَا)** - أي: يشقُّها، فأصل الخرم: الشَّقُّ.

وعلّله بقول الشافعي: **(مَنْ لَمْ يَصُنِ الْعِلْمَ لَمْ يَصُنْهُ الْعِلْمُ)**، فالدّاعي إلى صيانتك العلم هو أن يكون العلم صائناً لك - أي: حافظاً لك -، فإن لم تحفظ العلم وترعاه فإن العلم لا يحفظك.

قال: **(وَمَنْ أَحَلَّ بِالْمُرُوَّةِ بِالْوُقُوعِ فِيمَا يَشِينُ فَقَدْ اسْتَخَفَّ بِالْعِلْمِ)** - أي: لم يبال به -، **(فَلَمْ يُعْظَمْهُ وَوَقَعَ فِي الْبَطَالَةِ)** - أي: في حال الفساد والمجانة -، **(فَتَفْضِي بِهِ الْحَالَ إِلَى زَوَالِ أَسْمِ الْعِلْمِ عَنْهُ)** - أي: بأن يمحو اسم العلم عنه.

(قَالَ وَهَبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: «لَا يَكُونُ الْبَطَالُ مِنَ الْحُكَمَاءِ»)؛ أي: لا يكون الماجن الفاسد المتباعد عن أخلاق العلم من الحكماء - أي: من أهل الحكمة.

ثم ذكر **(جِمَاعَ الْمُرُوَّةِ)** - أي: الأصل الجامع لها - وهو: **(«أَسْتَعْمَالُ مَا يُجَمِّلُهُ وَيَزِينُهُ، وَتَجَنُّبُ مَا يُدْنِسُهُ وَيَشِينُهُ»)**. ذكره ابن تيميّة الجَدُّ وحفيده أبو العباس أحمد رحمهما الله.

فمدار المروءة على أمرين:

أحدهما: استعمال العبد ما يُجَمِّلُهُ وَيَزِينُهُ - أي: ما يكون به جميلاً زيناً.

والآخر: تباعده عمّا يُدْنِسُهُ - أي: ما يُلَطِّخُهُ بِالْقَبَائِحِ - ويشينه.

فإذا عُني العبد بهذين الأمرين أصاب المروءة، وأصلها في القرآن هو قوله تعالى: ﴿ **خُذْ**

الْعَفْوَ وَأْمُرًا بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛ كما ذكر المصنّف عن

سفيان بن عيينة، وفيه قوله بعد ذكر هذه الآية: **(فَفِيهِ الْمُرُوَّةُ، وَحُسْنُ الْأَدَبِ، وَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ)**.

ثم قال: (وَمِنْ أَلْزَمِ أَدَبِ النَّفْسِ لِلطَّلَبِ: تَحَلِّيهِ بِالْمُرُوءَةِ) - أي: بأن يتخلَّق بها -، (وَمَا يَحْمِلُ عَلَيْهَا) - أي: ما يبلغه إياها -، (وَتَنْكِبُهُ) - أي: إعراضه وتباعده - (خَوَارِمَهَا)؛ أي: خوارم المروءة، وهي: الأمور التي تقدح في المروءة، وأصل (الخرم) - كما تقدم - من الشَّقِّ، فسُميت هَذِهِ الْأُمُورُ (خَوَارِمَ الْمُرُوءَةِ) لِأَنَّهَا تَشَقُّهَا وَتَمَحُو أَسْمَهَا عَنِ الْعَبْدِ.

قال: (الَّتِي تُحْمَلُ بِهَا؛ كَحَلْقِ لِحْيَتِهِ، أَوْ كَثْرَةِ الْإِلْتِفَاتِ فِي الطَّرِيقِ)، فَإِنَّ الْمَرْءَ إِذَا سَلَكَ طَرِيقًا مَرَادَهُ مِنْهُ الْوَصُولُ إِلَى شَيْءٍ، فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتَغَلَ بِالْإِلْتِفَاتِ أَصْلًا، وَإِنَّهَا يَلْتَفِتُ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ، فَإِذَا كَثُرَ أَلْتِفَاتُهُ فِي الطَّرِيقِ فَإِنَّ هَذَا مِنْ خَوَارِمِ الْمُرُوءَةِ.

ومن جملة ما يتصل بالالتفات في الطريق: الالتفات على السيارات الواقفة عند إشارة المرور، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يَخَالِفُ الْمُرُوءَةَ، فَلَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ يُشْرِفَ الْمَرْءُ بَعَيْنِيهِ إِلَى تِلْكَ السَّيَّارَةِ ثُمَّ يَنْقَلِبُ إِلَى تِلْكَ السَّيَّارَةِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَجْبَسَ نَظْرَهُ عَلَى مَا يَحْتَاجُهُ مِنَ الطَّرِيقِ وَالْإِشَارَةِ، وَأَمَّا التَّطَلُّعُ هَاهُنَا وَهَاهُنَا فَإِنَّهُ مِنْ خَوَارِمِ الْمُرُوءَةِ.

وكان مما أعتاد الناس هنا الامتناع عنه، فلم يكن فيما مضى من خلق الناس أن يتطلعوا إلى السيارات الواقفة عند الإشارة، حتَّى بُلِيَ النَّاسُ بِخَلَلِ الْمُرُوءَةِ وَالذِّينِ مَعًا، فَصَارَ النَّاسُ لَا يَبَالُونَ بِحِفْظِ أَبْصَارِهِمْ فِي إِطْلَاقِهَا إِلَى الْوَاقِفِينَ عِنْدَ الْإِشَارَاتِ.

قال: (أَوْ مَدَّ الرَّجُلَيْنِ فِي مَجْمَعِ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَلَا ضَرُورَةٍ دَاعِيَةٍ)، فَإِنَّ الْأَصْلَ فَيَمْنُ جُلُوسِ مَعَ النَّاسِ أَنْ يَلْزِمَ جِلْسَةَ الْأَدَبِ، وَلَيْسَ مِنْ جِلْسَةِ الْأَدَبِ فِي عُرْفِ النَّاسِ أَنْ يَمْدَ رَجْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَحْتَاجًا؛ لِتَعَبٍ، أَوْ أَنْ يَكُونَ مُضْطَرًّا؛ لِمَرَضٍ، فَهَذَا جَرَتْ عَادَةُ النَّاسِ بِالْمَسَاحَةِ فِيهِ.

وإذا كان مُسْتَقْبَحًا فِي مَجَامِعِ النَّاسِ عَادَةً فَإِنَّهُ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَحًا فِي مَجَالِسِ الْعِلْمِ وَالذِّينِ؛ لِأَنَّهَا أَعْلَى مَجَالِسِ الْخَلْقِ، فَلَيْسَتْ مَجَالِسِ الْمُلُوكِ هِيَ أَعْلَى مَجَالِسِ الْأَعْلَى؛ بَلْ أَعْلَى

مجالس الخلق هي المجالس التي تخلف مجالس النبوة، والتي خلفت مجالس النبوة هي: مجالس العلم؛ فمن الأدب فيها أن لا يمدَّ رجله إلا أن يكون محتاجًا أو مريضًا. قال: (أَوْ صُحْبَةِ الْأَرَاذِلِ وَالْفُسَّاقِ وَالْمُجَّانِ وَالْبَطَّالِينَ)، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَصْلِحُونَ لِلصُّحْبَةِ، (أَوْ مُصَارَعَةِ الْأَحْدَاثِ وَالصَّغَارِ)، فَإِنَّ المرءَ إِنَّمَا يَعَامَلُ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَمَا شَابَهَا مَنْ كَانَ فِي سِنِّهِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ يَقْصُرُ عَنْهُ بِمُدَّةٍ - كَحَدِيثٍ صَغِيرٍ - فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُهُ فِي مِثْلِ هَذَا.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد الثاني عشر انتخاب الصَّحبةِ الصَّالحةِ له

أَتَّخَذُ الزَّمِيلَ ضُرُورَةً لَأَزِمَةً فِي نَفُوسِ الْخَلْقِ، فَيَحْتَاجُ طَالِبُ الْعِلْمِ إِلَى مُعَاشَرَةِ غَيْرِهِ مِنْ الطُّلَّابِ؛ لِتُعِينَهُ هَذِهِ الْمُعَاشَرَةُ عَلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي طَلْبِهِ.

وَالزَّمَالَةُ فِي الْعِلْمِ إِنْ سَلِمَتْ مِنَ الْغَوَائِلِ نَافِعَةٌ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْمَقْصُودِ.

وَلَا يَحْسُنُ بِقَاصِدِ الْعُلَا إِلَّا أَنْتَخَبَ صُحْبَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ؛ فَإِنَّ لِلْخَلِيلِ فِي خَلِيلِهِ أَثْرًا.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الرَّجُلُ

عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ».

يَقُولُ الرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: «لَيْسَ إِعْدَاءُ الْجَلِيسِ لِجَلِيسِهِ بِمَقَالِهِ وَفَعَالِهِ فَقَطُّ؛ بَلْ بِالنَّظَرِ

إِلَيْهِ».

وَإِنَّمَا يُخْتَارُ لِلصُّحْبَةِ مَنْ يُعَاشِرُ لِلْفَضِيلَةِ لَا لِلْمَنْفَعَةِ وَلَا لِلذَّذَّةِ؛ فَإِنَّ عَقْدَ الْمُعَاشَرَةِ يُبْرِمُ عَلَى

هَذِهِ الْمَطَالِبِ الثَّلَاثَةِ: الْفَضِيلَةَ وَالْمَنْفَعَةَ وَالذَّذَّةَ.

ذَكَرَهُ شَيْخُ شَيْوَحْنَا مُحَمَّدُ الْخَضِرِ بْنِ حُسَيْنٍ فِي «رَسَائِلِ الْإِصْلَاحِ».

فَانْتَخَبْ صَدِيقَ الْفَضِيلَةِ زَمِيلًا، فَإِنَّكَ تُعْرِفُ بِهِ.

وَقَالَ أَبُو مَانِعٍ فِي «إِرْشَادِ الطُّلَّابِ» - وَهُوَ يُوصِي طَالِبَ الْعِلْمِ - : «وَيَحْذَرُ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ

مُخَالَطَةِ السُّفَهَاءِ وَأَهْلِ الْمُجُونِ وَالْوَقَاحَةِ وَسَيِّئِي السَّمْعَةِ وَالْأَغْيَاءِ وَالْبُلْدَاءِ؛ فَإِنَّ مُخَالَطَتَهُمْ

سَبَبُ الْحَرَمَانِ وَشَقَاوَةِ الْإِنْسَانِ».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر المصنّف وفقه الله معقداً آخرًا من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: **(اِتِّخَابُ الصُّحْبَةِ الصَّالِحَةِ لَهُ)**؛ والمراد بالانتخاب: الاختيار؛ فيختار المتعلّم صحبةً سالحةً له، فإنّ هذا من تعظيم العلم، وليس من تعظيم العلم أن يصحب المرء فيه أهل البطالة والمجانة والفساد، فإنّ هُوَ لَأَيُّ يقطعونه عنه.

ونفوس الخلق مفطورةٌ على اتّخاذ مَنْ يعاشرهم ويصحبهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا كُفْرَهُمْ سَعْوًا وَقَبَائِلَ لِيَتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، فهذه الآية أصل في كون الإنسان مدنيًا بالطبع، أي: مفتقرًا إلى مَنْ يكون قرينًا معاشرًا له من الخلق.

قال: **(اِتِّخَاذُ الزَّمِيلِ صَرُورَةٌ لَازِمَةٌ فِي نَفُوسِ الْخَلْقِ، فَيَحْتَاجُ طَالِبُ الْعِلْمِ إِلَى مُعَاشَرَةِ غَيْرِهِ مِنَ الطُّلَّابِ؛ لِتُعِينَهُ هَذِهِ الْمُعَاشَرَةُ عَلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي طَلْبِهِ)**؛ فالمقصود من اتّخاذ العشير المقارن: هو إعادته على تحصيل العلم، وحمله على الاجتهاد فيه.

ثم قال: **(وَالزَّمَالَةُ فِي الْعِلْمِ إِنْ سَلِمَتْ مِنَ الْغَوَائِلِ)** - أي: من العوادي المفسدة - **(نَافِعَةٌ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْمَقْصُودِ)**، فالمرء عادةً يفتقر إلى صاحبه، والمشتغل بالفضائل - ومنها: العلم - يفتقر أكثر فأكثر إلى صاحب؛ لمشقة تلك الفضائل، فإنّ الفضائل ثقيلةٌ على النفس، وممّا يهونها عليها: اتّخاذ الأصحاب في طلبها.

قال: **(وَلَا يَحْسُنُ بِقَاصِدِ الْعُلَا إِلَّا اِتِّخَابُ صُحْبَةٍ صَالِحَةٍ تُعِينُهُ؛ فَإِنَّ لِلْخَلِيلِ فِي خَلِيلِهِ أَثْرًا)**.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُجَالِسُ»**؛ أي: يكون المرء في دينه حسنًا وسوءًا بحسب حال مَنْ يصحبه، فليتخير من الأخلاء ما يعينه على صلاح دينه وحفظه.

قال **(الرَّائِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ)**: **«لَيْسَ إِعْدَاءُ الْجَلِيسِ لِجَلِيسِهِ بِمَقَالِهِ وَفَعَالِهِ فَقَطُّ؛ بَلْ بِالنَّظَرِ**

إِلَيْهِ»؛ أي: لا يقتصر أثر المجلس مع جلسه بأن يسمع منه قولاً أو يرى منه فعلاً، فإن هذا مما يعمل في النفس عمله، بل يتجاوز ذلك حتى يكون تأثيره بالنظر إليه، ولذلك مَنْ صحب العلماء وجعلَ لنظره حظاً فيهم أنفع بهذا النظر، وكذلك إذا صحب مَنْ لا تحسن صحبته فإنَّ نظره إليه يُفسده.

وفي أخبار الإمام أحمد أنه كان يحضر مجلسه خمسة آلاف لا يكتبون شيئاً، وإنما ينظرون إلى أدبه وهديهِ، فكانوا ينتفعون بالنظر إلى ما كان عليه من الأدب والهدي فيعمل ذلك في نفوسهم.

وإذا كان هذا مع خليلٍ محمودِ السيرة أنفع به العبد، وإذا كان مع خليلٍ لا تُحمد سيرته فلا تظنَّ أنك تتحفظ من قوله وفعله فقط؛ بل ينبغي أن تتحفظ حتى من النظر إليه، ولذلك فإنَّ صحبته لا تصلح؛ لأنَّ ضررها عليك وخيم.

ثم قال: **(وإنما يُختارُ للصُّحبة مَنْ يُعاشِرُ للفضيلةِ لا للمُنفعةِ ولا للذةِ؛ فإنَّ عقدَ المُعاشرةِ يُبرِّمُ على هذه المطالبِ الثلاثة: الفضيلةِ والمنفعةِ والذِّمةِ)**؛ فإنَّ الأصحاب والأصدقاء ثلاثة أنواع:

أحدهم: صديق فضيلة.

وثانيهم: صديق منفعة.

وثالثهم: صديق لذة.

(ذَكَرَهُ شَيْخُ شَيْوَحْنَا مُحَمَّدُ الْخَضِرِ بْنِ حُسَيْنٍ فِي «رَسَائِلِ الْإِصْلَاحِ»).

فالصداقة تنعقد بين الناس تارةً للمشاركة في فضيلة يطلبونها، ومنكم مَنْ يعرف أنه صار صديقاً لآخر لاجتماعهما في مجلس علم، فنشأت بينهما صداقة بالاجتماع على فضيلة وهي: طلب العلم.

وتارةً تنشأ تلك الصداقة من منفعة يرجوها أحدهما في الآخر؛ فهو يصادقه ويصحبه

لأجل منفعة تصل إليه، كأن يكون ذا مالٍ فينتفع بما ينفقه من المال عليه في اجتماعهما وسفرهما ونحو ذلك.

وتارةً تنعقد الصداقة لأجل لذةٍ؛ فهو يجعل فلاناً صديقاً له لأجل ما يصل من اللذة إلى نفسه إذا اجتمع به؛ كأن يكون ذا دعابةٍ ولطفٍ، فيصاحبه لأجل ما يجد من طيب النفس وأنسراحها وتمتعها بما يسمع من الفكاهة منه.

وهذه الأنواع الثلاثة لا يبقى منها إلا صداقة الفضيلة؛ لأنَّ صداقة المنفعة واللذة تنقطعان بانقطاع موجهها؛ فالذي عقد الصداقة معك لأجل منفعة؛ كغناك، فإنه إذا ذهبت تلك المنفعة تركك، فلو قدر أنك أفترقت بعد غنى أعرض عنك، وكذلك مَنْ عقد معك الصداقة لأجل لذة فقدها، فإنه لا يبقى تلك الصداقة التي بينك وبينه، ولا تبقى من الصداقة قوية العقد إلا الصداقة التي تُعقد على الفضيلة.

قال: **(فانتخب صديق الفضيلة زميلاً، فإنك تُعرف به)؛** أي: تخير مَنْ تصادقه لأجل الفضيلة فإنك تُعرف به، أي: بالنسبة إليه، بأنك اجتمعت معه لأجل فضيلة تطلبانها.

وقال - وهو يوصي طالب العلم - : «ويحذر كل الحذر من مخالطة السفهاء وأهل المجون والوقاحة وسيئي السمعة والأغبياء والبلدء؛ فإن مخالطتهم سبب الحرمان وشقاوة الإنسان»

ثم ختم بوصية من وصايا العلامة محمد (بن مانع في إرشاد الطلاب) - وهو كتاب نافع كما ذكرت لكم -، مما فيه قوله: **(«ويحذر كل الحذر من مخالطة السفهاء وأهل المجون والوقاحة وسيئي السمعة والأغبياء والبلدء»)**، فجميع هؤلاء الموصوفين في كلامه مما يُحذر ملتصق العلم من مخالطتهم.

قال: **(«فإن مخالطتهم سبب الحرمان وشقاوة الإنسان»)**؛ أي: إذا خالط المتعلم هؤلاء الناس فإنه يُحرم الخير الذي يرومه، ويشقى بسببهم.

وفي أخبار سفيان بن عيينة أنه كان يقول: «إني لأحرم الرجل الحديث الغريب لأجل جليسه»؛ أي: لأمنع الرجل حديثاً يفيدُه لأجل جليسٍ يجالسه؛ فلا طَّلَاعَ سفيانَ حاله بخبرٍ عنه أو كونه وفدَّ معه فإنَّه يمنعه؛ لأجل نظره إلى ذلك الجليس الذي يصحبه، فمثله لا يصلح أن يكون محلاً للعلم.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد الثالث عشر
بذل الجهد في تحفظ العلم،
والمذاكرة به، والسؤال عنه

إِذْ تَلَقَّيْهِ عَنِ الشُّيُوخِ لَا يَنْفَعُ بِلَا حِفْظٍ لَهُ، وَمُذَاكِرَةٍ بِهِ، وَسُؤَالٍ عَنْهُ، فَهَؤُلَاءِ تُحَقِّقُ فِي قَلْبٍ
طَالِبِ الْعِلْمِ تَعْظِيمَهُ؛ بِكَمَالِ الْاَلْتِمَاتِ إِلَيْهِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِ، فَالْحِفْظُ خَلْوَةٌ بِالنَّفْسِ، وَالْمُذَاكِرَةُ
جُلُوسٌ إِلَى الْقَرِينِ وَالسُّؤَالُ إِقْبَالٌ عَلَى الْعَالِمِ.
وَلَمْ يَزَلِ الْعُلَمَاءُ الْأَعْلَامُ يُحْضُونَ عَلَى الْحِفْظِ وَيَأْمُرُونَ بِهِ.
سَمِعْتُ شَيْخَنَا أَبْنَ عَثِيمِينَ يَقُولُ: «حَفِظْنَا قَلِيلًا وَقَرَأْنَا كَثِيرًا؛ فَانْتَفَعْنَا بِمَا حَفِظْنَا أَكْثَرَ مِنْ
أَنْتَفَاعِنَا بِمَا قَرَأْنَا».

وَبِالْمُذَاكِرَةِ تَدْوِمُ حَيَاةَ الْعِلْمِ فِي النَّفْسِ، وَيَقْوَى تَعَلُّقُهُ بِهَا، وَالْمُرَادُ بِالْمُذَاكِرَةِ مُدَارَسَةُ
الْأَقْرَانِ.

وَقَدْ أَمَرْنَا بِتَعَاهُدِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ أَيْسَرُ الْعُلُومِ.
رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّمَا
مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا
ذَهَبَتْ».

قَالَ أَبُو عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِهِ «التَّمْهِيدُ» عِنْدَ هَذَا الْحَدِيثِ: «وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ الْمَيْسَرُ لِلذِّكْرِ
كَالْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، مَنْ تَعَاهَدَهَا أَمْسَكَهَا فَكَيْفَ بِسَائِرِ الْعُلُومِ؟!».
وَبِالسُّؤَالِ عَنِ الْعِلْمِ تُفْتَحُ خَزَائِنُهُ، فَحُسْنُ الْمَسْأَلَةِ نِصْفُ الْعِلْمِ، وَالسُّؤَالَاتُ الْمُصَنَّفَةُ
- كَمَسَائِلِ أَحْمَدَ الْمَرْوِيَّةِ عَنْهُ - بُرْهَانٌ جَلِيٌّ عَلَى عَظِيمِ مَنْفَعَةِ السُّؤَالِ.

وَهَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةُ لِلْعِلْمِ: بِمَنْزِلَةِ الْغَرْسِ لِلشَّجَرِ وَسَقِيهِ وَتَنْمِيَّتِهِ بِمَا يَحْفَظُ قُوَّتَهُ وَيَدْفَعُ
أَفْتَهُ، فَالْحِفْظُ غَرْسُ الْعِلْمِ، وَالْمَذَاكِرَةُ سَقِيهِ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ تَنْمِيَّتُهُ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللَّهُ مَعْقِدًا آخِرًا مِنْ مَعَاقِدِ تَعْظِيمِ الْعِلْمِ؛ وَهُوَ: **(بَدَلُ الْجُهْدِ) (١)** فِي
تَحْفُظِ الْعِلْمِ، وَالْمَذَاكِرَةِ بِهِ، وَالسُّؤَالِ عَنْهُ، فَيَبْذُلُ طَالِبُ الْعِلْمِ جِهْدَهُ فِي ثَلَاثَةِ مِيَادِينَ:
أَحَدَهَا: تَحْفُظُ الْعِلْمِ؛ أَي: طَلْبُ حِفْظِهِ.

وِثَانِيهَا: الْمَذَاكِرَةُ بِهِ؛ أَي: مَدَارَسَتُهُ مَعَ الْأَقْرَانِ، فَأَصْلُ الْمَذَاكِرَةِ: مِفَاعَلَةٌ بِالذُّكْرِ بَيْنَ اثْنَيْنِ
فَأَكْثَرُ، فَيَجْتَمِعُ اثْنَانِ أَوْ أَكْثَرُ وَيَذْكَرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ، ثُمَّ يَذْكَرُ لَهُ الْآخَرَ شَيْئًا
مِنَ الْعِلْمِ.

وِثَالِثُهَا: السُّؤَالُ عَنْهُ؛ أَي: الْاسْتِفْهَامُ عَمَّا يَغْمُضُ مِنْهُ.

ثُمَّ قَالَ: **(إِذْ تَلَقَّيْهِ عَنِ الشُّيُوخِ لَا يَنْفَعُ بِلَا حِفْظٍ لَهُ، وَمَذَاكِرَةٍ بِهِ، وَسُؤَالٍ عَنْهُ، فَهَهُؤُلَاءِ
تُحَقِّقُ فِي قَلْبِ طَالِبِ الْعِلْمِ تَعْظِيمَهُ؛ بِكَمَالِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِ، فَالْحِفْظُ خَلْوَةٌ
بِالنَّفْسِ، وَالْمَذَاكِرَةُ جُلُوسٌ إِلَى الْقَرِينِ وَالسُّؤَالُ إِقْبَالٌ عَلَى الْعَالِمِ)**، فَانْتِفَاعٌ مَلْتَمَسُ الْعِلْمِ
بِأَخْذِ الْعِلْمِ عَنِ الشُّيُوخِ لَا يَكْمُلُ إِلَّا بِرِعَايَةِ الْحَقِّ فِي هَذِهِ الْمِيَادِينَ الثَّلَاثَةِ، فَيَكُونُ لَهُ حِظٌّ مِنْ
الْخَلْوَةِ بِنَفْسِهِ تَحْفُظًا لِلْعِلْمِ، وَيَكُونُ لَهُ حِظٌّ مِنَ الْجُلُوسِ إِلَى قَرِينِ يَذَاكِرُهُ الْعِلْمَ الَّذِي أَخَذَهُ
عَنْ شَيْخِهِ، وَيَكُونُ لَهُ حِظٌّ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ بِسُؤَالِهِمْ.

(١) بضم الجيم وفتحها، فيقال: الجهد، والجهد، والمراد به: الوُسْعُ والطاقة.

ثم ذكر شيئاً يتعلق بهذه الميادين الثلاثة، فقال فيما يتصل بالحفظ: **(وَلَمْ يَزَلِ الْعُلَمَاءُ الْأَعْلَامُ يُحْضُونَ) - أي: يحثون - (عَلَى الْحِفْظِ وَيَأْمُرُونَ بِهِ. سَمِعْتُ شَيْخَنَا ابْنَ عُثَيْمِينَ يَقُولُ: «حَفِظْنَا قَلِيلاً وَقَرَأْنَا كَثِيراً؛ فَانْتَفَعْنَا بِهَا حَفِظْنَا أَكْثَرَ مِنْ أَنْتَفَاعِنَا بِهَا قَرَأْنَا»؛** لأنَّ رسوخ المحفوظ في القلب أقوى من رسوخ المقروء، فيستدعى منه العلم، فالعلم الذي يحضر في النفس ممَّا أصله الحفظ أقوى من العلم الذي يحضر في النفس ممَّا أصله القراءة، فإنَّك تنال العلم تارةً بحفظه، وتناله تارةً بقراءته، ولكلُّ منهما مقامه الصَّالح له.

والعلم الذي تحفظه أقوى حضوراً في النفس، وأسرع استحضاراً من العلم الذي أدركته بالقراءة فقط.

ثم ذكر ما يتصل بالمذاكرة فقال: **(وَبِالْمَذَاكِرَةِ تَدْوِمُ حَيَاةَ الْعِلْمِ فِي النَّفْسِ)؛** أي: يبقى العلم حياً في نفسك، حاضرًا مشهودًا، **(وَيَقْوَى تَعَلُّقُهُ بِهَا)؛** أي: يقوى تعلُّق العلم بالنفس، **(وَالْمُرَادُ بِالْمَذَاكِرَةِ مَدَارَسَةُ الْأَقْرَانِ).**

(وَقَدْ أَمَرْنَا بِتَعَاهِدِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ أَيْسَرُ الْعُلُومِ)، ففي حديث (أَبْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«إِنَّهَا مِثْلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمِثْلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ»**) - أي: المُقَيِّدَة -، **(«إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا»)** - أي: إذا داوم النَّظْرَ إلى أَسْتَحْكَامِ الْقَيْدِ وَبِقَائِهِ بَقِيَتْ مُقَيِّدَةً -، **(«وَأِنْ أَطْلَقَهَا»)** - لم يبالٍ في ضبط هذا القيد - **(«ذَهَبَتْ»)** - أي: أنطلقت في المراعي.

(قَالَ أَبُو عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِهِ «التَّمْهِيدُ» عِنْدَ هَذَا الْحَدِيثِ: «وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ الْمَيْسَرُ لِلذِّكْرِ كَالْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، مَنْ تَعَاهَدَهَا أَمْسَكَهَا فَكَيْفَ بِسَائِرِ الْعُلُومِ؟!»)، وأكمل المعاهدة: عرض القرآن على آخر، وهو الَّذِي كَانَ فِي هَدْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَدَارِسَةِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأكمل حِفْظَ الْعِلْمِ وَتَعَاهِدَهُ يَكُونُ بِمَذَاكِرَتِهِ مَعَ قَرِينٍ يَشَارِكُ الْعِلْمَ.

ثم ذكر ما يتصل بالسؤال فقال: **(وَبِالسُّؤَالِ عَنِ الْعِلْمِ تُفْتَحُ خَزَائِنُهُ)**؛ لأنَّ العلمَ خزائنٌ، ومفتاحها السؤال - كما قال بعض السلف -، قال: **(فَحُسْنُ الْمَسْأَلَةِ نِصْفُ الْعِلْمِ، وَالسُّؤَالَاتُ الْمُصَنَّفَةُ - كَمَسَائِلِ أَحْمَدَ الْمَرْوِيَّةِ عَنْهُ - بَرْهَانٌ جَلِيٌّ عَلَى عَظِيمِ مَنْفَعَةِ السُّؤَالِ)**؛ لما فيها من عظيم العلم؛ فإنَّك تجد في الكتب المصنَّفة باسم (السُّؤَالَاتِ) أو باسم (الفتاوى) كثيرًا من العلم لا تجده في تقرير تلك المسائل في كتب ذلك العلم.

فالانتفاع بالسُّؤَالَاتِ عظيم جدًّا، وينبغي أن يحرص طالب العلم على أن يكون معه كُنَّاشٌ للسُّؤَالَاتِ، فكم من سؤالٍ يرد عليك ثم تنوي أن تسأل عنه شيخًا ثم تغفل فيذهب عنك السُّؤال، ولو أنك سألت هذا السؤال لكان فيه نفع عظيم لك، وربما كان فيه نفع عظيم لأمةٍ من الخلق، فربَّما لم يمر ذكر هذه المسألة من قبل في ديوان جامع ولا درس، فيكون ذكرك هذا السؤال لما أنقذح في نفسك نفعًا لك، ثم إذا قيَّدت ذلك السؤال أنتفعت به أنتفاعا كبيرًا.

كسؤالٍ سألني أحدهم - وتعرفون به شدة منفعة السُّؤال النافع لا للمتعلِّم فقط؛ بل للمعلم - : أيهما أفضل أن يأتي العبد بأذكار الصباح والمساء في المسجد أم في البيت؟^(١) هذا السُّؤال ألسنا نحتاج إلى جوابه كلَّ يوم أم لا نحتاج؟، نحتاج، فنحن كل يوم نذكر في الصباح والمساء، لكن أيهما أفضل؟

(١) أبحثوا عن هذه المسألة وأسألوا عنها، فالَّذين يسألون سيجدون نفعًا في سؤال العلماء، والَّذين يبحثون سيجدون - إن وجدوا - شيئًا في الكتب، والدَّرس القادم الذي يأتي بجواب يكتبه في ورقة ويضعه هنا؛ فمثلاً: لو قُدِّر أن أحدهم سأل الشيخ صالح الفوزان، أو الشيخ عبد الرَّحْمَنِ الْبِرَّكَ وَأَجَابَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ يَأْتِي بِهِ فَنَسْتَفِيدُ، أَوِ الَّذِي يَجِدُ شَيْئًا فِي الْكُتُبِ مِنْ جَوَابِ هَذَا السُّؤَالِ يَفِيدُنَا.

أنظر إلى عظمة هَذَا السُّؤال ، وشِدَّة الحاجة إليه ، وإِنَّكَ رَبِّهَا لا تجده في كتابٍ ولم يسبق أن سمعت أحداً أجاب عنه ، فسؤالُك عنه منفعة لنا وللمسلمين ، فينبغي دائماً لطالب العلم أن يُقيّد السُّؤالات التي تعرض له حتى ينتفع هو وينفع المسلمين بها .

ثم قال: **(وَهَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةُ لِلْعِلْمِ: بِمَنْزِلَةِ الْغَرْسِ لِلشَّجَرِ وَسَقْيِهِ وَتَنْمِيَّتِهِ بِمَا يَحْفَظُ قُوَّتَهُ وَيَدْفَعُ أَفْتَهُ)؛** فالشَّجر يُغرس أولاً ، ثم يُسقى ثانياً ، ثم يُنمى ثالثاً .

قال: **(فَالْحِفْظُ غَرْسُ الْعِلْمِ)؛** فإذا حفظت فكأنما تغرس العلم في نفسك؛ فمثلاً: الذي يأتي ويحفظ «ثلاثة الأصول»، كأنما يغرس هَذِهِ المعارف في قلبه .

قال: **(وَالْمَذَاكِرَةُ سَقْيُهُ)؛** أي: مدارستك العلم مع قرينٍ لك بمنزلة سقيك للعلم الذي صار في قلبك .

قال: **(وَالسُّؤَالُ عَنْهُ تَنْمِيَّتُهُ)؛** أي: زيادته وتكثيره .

فهذا السُّؤال الذي ذكرته لكم مثلاً فيه زيادةٌ للعلم ، وتنميةٌ له ، فالسائل سمع دروساً في شرح أذكار الصباح والمساء وبيان جملة من مسائلها ، فكان ممَّا يُحتاج إليه هَذِهِ المسألة ، فهو لم يُنمِّ علمه فقط؛ بل هو هو نمى علم المعلم ، ونمى الآن علومكم ، وأيضاً نمى علوم مَنْ سئل على عليهم السُّؤال فينظرون في جوابه ، وليس منتهى هَذِهِ التَّنمية في العلم فقط ، بل التَّنمية في العمل ، وهي أعظم ، فإنَّه سيعرف ما هو جواب هَذَا لسؤال ثم يعمل به .

ومن الفوائد: أنَّ علم علماء نجد في السُّؤالات - هَذِهِ قاعدةٌ عند أهل نجد-؛ لأنَّ الشيخ المعلم عندهم يبين للطالب قدر ما ينفعه ، فإذا سئل السُّؤال وجدت فيه فائدةً لا تجدها في الكتب .

مثلاً: أستمعوا إلى شرح «الواسطية» للشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ في شريطين ، إذا سمعته ستجده تعليقات قليلة ، وهي علمٌ ، لَكِنَّ الأَعْظَم هي السُّؤالات ، تجدُ الشيخ يُسأل سؤالاً ثمَّ يجيب عنه ، يبقى الإنسان يبحث مدَّةً طويلةً حتى ينتهي إلى جواب الشيخ .

مثلاً: في «العقيدة الواسطية» سُئِلَ رَحْمَةُ اللَّهِ: هل أسم (الصبور) من أسماء الله؟، فقال: لا.

هذه الفائدة إذا ذهبت وبحثت في الكتب تجد فيها كلاماً وخلافاً، والصحيح ما ذكره الشيخ.

فالسؤالات نافعة، خاصة الشيخ ابن باز رَحْمَةُ اللَّهِ تعالى، ومن كان على طريقة علماء نجد من تقليل الكلام في البيان للمبتدئين وعموم الناس، تجد أن الفائدة الأكبر في أجوبتهم، فهم يُسألون أسئلة ثم يجيبون عنها.

كذلك في السؤالات التي كان يسألها بعض الحاذقين للشيخ محمد ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ تجد أن كثيراً من هذه الفوائد التي لا تجدها في شروحه تجدها في سؤالاته، ولذلك من الخطأ الواقع الآن أن يُطبع شرح شيخٍ ألقاه تسجيلاً ثم تُترك السؤالات، ففي السؤالات حلٌ جملة من الإشكالات التي تقع في الكلام، فلا ينتفع طالب العلم بأن يقرأ شرحاً للشيخ فلان ممَّا أخذ من الأشرطة ثم لا يسمع الأسئلة، بل لا بد أن يسمع السؤالات حتى تنتفي عنه بعض الإشكالات التي تمر به في أثناء ذلك الشرح، أو يستفيد فوائد لا يجدها في الشرح.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد الرابع عشر إكرام أهل العلم وتوقيرهم

إِنَّ فَضْلَ الْعُلَمَاءِ عَظِيمٌ، وَمَنْصِبُهُمْ مَنْصِبٌ جَلِيلٌ؛ لِأَنَّهُمْ آبَاءُ الرُّوحِ، فَالشَّيْخُ أَبُو الرُّوحِ
كَمَا أَنَّ الْوَالِدَ أَبُو الْجَسَدِ؛ فَالاعترافُ بِفَضْلِ الْمُعَلِّمِينَ حَقٌّ وَاجِبٌ.
قَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ: «كُلُّ مَنْ سَمِعْتُ مِنْهُ حَدِيثًا، فَأَنَا لَهُ عَبْدٌ».
وَأَسْتَبْطِطُ هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْقُرْآنِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَذْفُوِيُّ فَقَالَ: «إِذَا تَعَلَّمَ الْإِنْسَانُ مِنَ
العَالِمِ وَأَسْتَفَادَ مِنْهُ الْفَوَائِدَ، فَهُوَ لَهُ عَبْدٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴿الكهف: ٦٠﴾، وَهُوَ يُوَسِّعُ بْنُ نُونٍ، وَلَمْ يَكُنْ مَمْلُوكًا لَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ مُتَلِمًا لَهُ، مُتَّبِعًا لَهُ، فَجَعَلَهُ
اللهُ فَتَاهُ لِذَلِكَ».

وَقَدْ أَمَرَ الشَّرْعُ بِرِعَايَةِ حَقِّ الْعُلَمَاءِ؛ إِكْرَامًا لَهُمْ، وَتَوْقِيرًا، وَإِعْزَازًا.
فَرَوَى أَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ» عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَالَ: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلِّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ».
وَنَقَلَ أَبُو حَزِيمٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى تَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ وَإِكْرَامِهِمْ.

فَمِنَ الْأَدَبِ اللَّازِمِ لِلشَّيْخِ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ - مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ هَذَا الْأَصْلِ - التَّوَضُّعُ لَهُ،
وَالِاقْبَالُ عَلَيْهِ، وَعَدَمُ الْإِلْتِفَاتِ عَنْهُ، وَمُرَاعَاةُ أَدَبِ الْحَدِيثِ مَعَهُ، وَإِذَا حَدَّثَ عَنْهُ عَظَّمَهُ مِنْ
غَيْرِ غُلُوٍّ، بَلْ يُنْزِلُهُ مَنْزِلَتَهُ؛ لِئَلَّا يَشِينَهُ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَمْدَحَهُ، وَلِيَشْكُرُ تَعْلِيمَهُ وَيَدْعُ لَهُ،
وَلَا يُظْهِرِ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنْهُ، وَلَا يُؤْذِيهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَلِيَتَلَطَّفَ فِي تَنْبِيهِهِ عَلَى خَطِيئَتِهِ إِذَا وَقَعَتْ
مِنْهُ زَلَّةٌ.

وَمَّا تَنَاسَبُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ هُنَا - بِاخْتِصَارٍ وَجِيزٍ - مَعْرِفَةُ الْوَاجِبِ إِزَاءَ زَلَّةِ الْعَالِمِ، وَهُوَ سِتَّةُ أُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: التَّثَبُّتُ فِي صُدُورِ الزَّلَّةِ مِنْهُ.

وَالثَّانِي: التَّثَبُّتُ فِي كَوْنِهَا خَطَأً، وَهَذِهِ وَظِيفَةُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، فَيُسْأَلُونَ عَنْهَا.

وَالثَّالِثُ: تَرْكُ اتِّبَاعِهِ فِيهَا.

وَالرَّابِعُ: الَّتِمَاسُ الْعُذْرِ لَهُ بِتَأْوِيلٍ سَائِعٍ.

وَالْخَامِسُ: بَذْلُ النَّصِيحِ لَهُ بِلُطْفٍ وَسِرٍّ، لَا بَعْنَفٍ وَتَشْهِيرٍ.

وَالسَّادِسُ: حِفْظُ جَنَابِهِ، فَلَا يُهْدَرُ كِرَامَتُهُ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ.

وَمَّا يُحْذَرُ مِنْهُ مِمَّا يَتَّصِلُ بِتَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ؛ مَا صُورَتُهُ التَّوْقِيرُ وَمَأَلُهُ الْإِهَانَةُ وَالتَّحْقِيرُ؛

كَالْإِزْدِحَامِ عَلَى الْعَالِمِ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ، وَإِلْجَائِهِ إِلَى أَعْسَرِ السُّبُلِ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

ذَكَرَ الْمَصْنُفُ وَفَّقَهُ اللَّهُ مَعْقِدًا آخَرَ مِنْ مَعَاقِدِ تَعْظِيمِ الْعِلْمِ؛ وَهُوَ: (إِكْرَامُ أَهْلِ الْعِلْمِ

وَتَوْقِيرُهُمْ)؛ أَي: إِجْلَالُهُمْ؛ لِأَنَّ (فَضْلَ الْعُلَمَاءِ عَظِيمًا، وَمَنْصِبَهُمْ مَنْصِبٌ جَلِيلٌ)، فَهَمَّ

مُسْتَحَقُونَ لِلْإِكْرَامِ وَالْإِجْلَالِ، وَلَهُمْ مِنَ الْأَبْوَةِ أَبْوَةُ الرُّوحِ كَمَا قَالَ: (لِأَيُّهُمْ آبَاءُ الرُّوحِ،

فَالشَّيْخُ أَبٌ لِلرُّوحِ كَمَا أَنَّ الْوَالِدَ أَبٌ لِلْجَسَدِ)، فَالْأَبْوَةُ الَّتِي تَحِيطُ بِالْعَبْدِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَبْوَةُ جَسَدِيَّةٌ؛ وَهِيَ لُوَالِدِهِ.

وَالْآخَرُ: أَبْوَةُ رُوحِيَّةٌ؛ وَهِيَ لِمُعَلِّمِهِ وَشَيْخِهِ.

فَالْمُعَلِّمُ وَالْمُؤَدِّبُ وَالشَّيْخُ أَبٌ لِلرُّوحِ؛ كَمَا أَنَّ الْوَالِدَ أَبٌ لِلْجَسَدِ. ذَكَرَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْحَفِيدِ.

ثم قال: (فَالَا عِتْرَافُ بِفَضْلِ الْمُعَلِّمِينَ حَقٌّ وَاجِبٌ)؛ أي: لما لهم من الأبوة الروحية. (قَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ: «كُلُّ مَنْ سَمِعْتُ مِنْهُ حَدِيثًا، فَأَنَا لَهُ عَبْدٌ»)؛ أي: أنا له مملوك، فإنه قد ملكني بما له من منة التعليم.

ثم ذكر أستنباط هذا المعنى من القرآن الذي ذكره (مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَذْفُويُّ فَقَالَ: «إِذَا تَعَلَّمَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعَالِمِ وَأَسْتَفَادَ مِنْهُ الْفَوَائِدَ، فَهُوَ لَهُ عَبْدٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴿﴾ [الكهف: ٦٠]، وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَلَمْ يَكُنْ مَمْلُوكًا لَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ مُتَلَمِّدًا لَهُ، مُتَّبِعًا لَهُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ فَتَاهُ لِذَلِكَ»)؛ أي: عدّ يوشع - وهو أحد الأنبياء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بمنزلة الفتى لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع كونه غير رقيق له؛ لما عليه من منة الهداية والإرشاد والتّعليم، فكذلك المعلمون لأجل هذه المنّة يكون المتعلمون عندهم بهذه المنزلة.

قال: (وَقَدْ أَمَرَ الشَّرْعُ بِرِعَايَةِ حَقِّ الْعُلَمَاءِ؛ إِكْرَامًا لَهُمْ، وَتَوْقِيرًا، وَإِعْزَازًا)، وذكر حديث (عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وفيه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («وَيَعْرِفُ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»)، فالعالم له حقٌّ يجب على العبد أن يعرفه.

(وَنَقَلَ أَبُو حَزْمٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى تَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ وَإِكْرَامِهِمْ).

قال: (فَمِنَ الْأَدَبِ اللَّازِمِ لِلشَّيْخِ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ - مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ هَذَا الْأَصْلِ - التَّوَاضُّعُ لَهُ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَعَدَمُ الْإِلْتِفَاتِ عَنْهُ، وَمُرَاعَاةُ أَدَبِ الْحَدِيثِ مَعَهُ، وَإِذَا حَدَّثَ عَنْهُ عَظَّمَهُ)؛ أي: إذا ذكر شيئاً من العلم ينقله عنه فإنه يُعَظَّمُ بشرطٍ هو المذكور في قوله: (مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ، بَلْ يُنْزَلُهُ مَنْزِلَتَهُ؛ لِئَلَّا يَشِينَهُ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَمْدَحَهُ)؛ أي: لا يرفعه فوق رتبة ليست له تكون عند العقلاء العارفين دون رتبته التي هو عليها، فيكون ذلك مذمّةً له من حيث أراد أن يرفعه.

قال: (وَلَيْشُكْرُ تَعْلِيمِهِ وَيَدْعُ لَهُ، وَلَا يُظْهِرُ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنْهُ)؛ أي: لا يُظْهِرُ أَنَّهُ مُسْتَغْنِي عَنْ

إرشاده وتعليمه.

ثم حذر من أذيته (بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَلِيَتَلَطَّفَ فِي تَنْبِيهِهِ عَلَى خَطِيئِهِ إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ زَلَّةٌ)؛ فإن الناس موضع الخطيئة والنسيان، فقد خلقهم الله عَزَّوَجَلَّ ولهم حظُّ من الزلّة والخطيئة مُعَلِّمًا ومتعلِّمًا، فمتى بدر من المعلم خطأ فظهرت منه زلّة تُلَطَّفُ في تنبيهه على خطئه - أي: سلك معه اللطف - فيتحرى أحسن أنواع اللطف معه حتّى يصيب منه مراده برجوعه عن خطئه وزلّته، وشكره المتعلّم على حُسن تنبيهه على خطئه.

ثم ذكر مما يناسب المقام الإشارة إلى ما ينبغي (إِزَاءَ زَلَّةِ الْعَالِمِ) - أي: خطئه - (وَهُوَ سِتَّةُ أُمُورٍ):

(الأوّل: التَّثَبُّتُ فِي صُدُورِ الزَّلَّةِ مِنْهُ)؛ أي: التحقق على وجه الثبّت أنّ هذِهِ الزَّلَّةُ وقعت منه؛ فقد يُنسب إلى أحدٍ شيءٌ لا يكون صادرًا عنه من قول أو فعل.

(والثاني: التَّثَبُّتُ فِي كَوْنِهَا خَطَأً)؛ أي: إذا تحقّق أنّ ما ذُكِرَ صدر عنه فإنه ينبغي أن يتثبت في أنّه خطأ فإنّ الأمر كما قال الأوّل:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَأَقْتَهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

فكم من إنسان يرى أن قولًا أو فعلًا هو من جملة الخطأ لقلّة علمه.

قال: (وَهَذِهِ وَظِيفَةُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، فَيَسْأَلُونَ عَنْهَا)؛ لأنّ زلّة العالم من جنس المتشابه الذي يخفى، فلا يترشّح للعلم بها إلاّ مَنْ رسخت قدمه في العلم. ذكره الشاطبي في «الموافقات»، وأبنُ رجبٍ في «جامع العلوم والحكم».

فإذا وقع للمتعلّم أن شيئًا تثبّت من صدوره عن أحد العلماء زلّ أنه يكون خطأً وجب عليه أن يعرف خطئه بعرضه على عالمٍ آخر ليبيّن له أن هذا القول خطأٌ أم له وجهٌ معتدُّ به.

قال: (وَالثَّالِثُ: تَرْكُ اتِّبَاعِهِ فِيهَا)؛ أي: ترك اتّباعه في زلّته، فلا يُقتدى به، فإذا تحقّق زلّل عالم في مسألة ما فليس من العذر لغيره أن يقال: قد قال به فلان، مع كون العلماء قد بينوا أن

ذَلِكَ الْقَوْلُ خَطَأً.

ثُمَّ قَالَ: **(وَالرَّابِعُ: أَلْتِمَاسُ الْعُذْرِ لَهُ بِتَأْوِيلِ سَائِغٍ)**؛ أَي: طَلَبَ عُذْرٍ لَهُ بِحَمْلِ كَلَامِهِ عَلَى وَجْهِ مُحْتَمَلٍ مَرَعِيٍّ فِي الْعِلْمِ.

قَالَ: **(وَالْحَامِسُ: بَدْلُ النَّصِيحِ لَهُ بِلُطْفٍ وَسِرٍّ، لَا بِعُنْفٍ وَتَشْهِيرٍ)**؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ رُدَّهُ عَنِ الْخَطَأِ وَالزَّلَلِ، وَإِذَا قُوبِلَ بِالتَّشْنِيعِ وَالتَّشْهِيرِ فَإِنَّهُ رُبَّمَا حَمَلْتَهُ الْأَنْفَعَةَ عَلَى عَدَمِ قَبُولِ تَصْوِيبِ الْمَصُوبِينَ.

قَالَ: **(وَالسَّادِسُ: حِفْظُ جَنَابِهِ، فَلَا تُهْدَرُ كَرَامَتُهُ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ)**؛ أَي: حِفْظُ قَدْرِهِ، فَلَا يُذْهَبُ قَدْرُهُ مِنْ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يُعَابَ وَيُزْرَى عَلَيْهِ وَلَا يُبَالَى بِمَنْصِبِهِ فَتُضْعَفُ حِشْمَتُهُ وَقَدْرُهُ فِي قُلُوبِهِمْ.

ثُمَّ خَتَمَ بِقَوْلِهِ: **(وَمِمَّا يُجَدَّرُ مِنْهُ مِمَّا يَتَّصِلُ بِتَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ؛ مَا صُورَتُهُ التَّوْقِيرُ وَمَالُهُ الْإِهَانَةُ وَالتَّحْقِيرُ)**؛ فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَسْلُكُ سَبِيلًا يَظُنُّ أَنَّهَا مِنْ جِنْسِ التَّوْقِيرِ وَهِيَ مِمَّا يَأْوُلُ إِلَى الْإِهَانَةِ وَالتَّحْقِيرِ.

قَالَ: **(كَالْأَزْدِ حَامٍ عَلَى الْعَالِمِ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ)** - أَي: يَعْنِي يَصِيرُ مَكَانَهُ ضَيْقًا -، **(وَإِلْجَائِهِ إِلَى أَعْسَرِ السُّبُلِ)**، بِأَنْ يُضَيَّقَ عَلَيْهِ طَرِيقَ أَوْ مَكَانَ، فَإِنَّ الْمَجْتَمِعِينَ عَلَيْهِ إِنَّمَا أَرَادُوا إِعْزَاذَهُ وَإِجْلَالَهَ، لَكِنَّهُمْ جَرَوْا عَلَى شَيْءٍ لَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ؛ لِأَنَّ مَالَ ذَلِكَ هُوَ التَّضْيِيقُ عَلَيْهِ وَإِلْجَائِهِ إِلَى أَعْسَرِ سَبِيلٍ، مِمَّا يَخَالِفُ الْإِكْرَامَ.

وَالْأَصْلُ: أَنَّ سَبِيلَ الْإِكْرَامِ هُوَ سُلُوكُ الْجَادَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، فَلَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْدَلَ عَنِ الْجَادَّةِ الشَّرْعِيَّةِ إِلَى غَيْرِهَا، فَإِنَّ هَذَا خِلَافُ التَّوْقِيرِ.

وَمِمَّا كَانَ يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَثِيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَيْرِهِ، وَكَانَ هُوَ يَنْكُرُهُ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ يَقْبَلُونَ عَلَيْهِ فَيَقْبَلُونَ رَأْسَهُ بِلَا مَصَافِحَةٍ، فَكَانَ يَنْهَى عَنْ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: إِنَّكُمْ تَتْرَكُونَ سُنَّةَ الْمَصَافِحَةِ الَّتِي فِيهَا الْأَجْرُ الْعَظِيمُ وَتَكْتَفُونَ بِتَقْبِيلِ الرَّأْسِ، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ يُسَلِّمُ

ويصافح ثم إذا شاء قبّل، وإذا شاء لم يقبّل.

فانظر إلى فقهه رَحْمَةُ اللَّهِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى سَبِيلِ التَّوْقِيرِ مِمَّا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ هُوَ مَنْ
وَجُوهٌ فَيَتْرَكُونَ سُنَّةَ مَأْمُورًا بِهَا، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد الخامس عشر ردُّ مشكله إلى أهله

فالمعظم للعلم يعوّل على دهاقته والجهابذة من أهله لحلّ مشكلاته، ولا يعرض نفسه لما لا تطيق؛ خوفاً من القول على الله بلا علم، والافتراء على الدين، فهو يخاف سخطه الرحمن قبل أن يخاف سوط السلطان، فإن العلماء بعلم تكلموا، وببصر نافذ سكتوا، فإن تكلموا في مشكل فتكلم بكلامهم، وإن سكتوا عنه فليسعك ما وسعهم.

ومن أشقّ المشكلات الفتن الواقعة والنوازل الحادثة التي تتكاثر مع امتداد الزمن. والناجون من نار الفتن، السالمون من وهج المحن؛ هم من فرغ إلى العلماء ولزم قولهم، وإن اشتبه عليه شيء من قولهم أحسن الظن بهم، فطرح قوله وأخذ بقولهم، فالتجربة والخبرة هم كانوا أحقّ بها وأهلها، وإذا اختلفت أقوالهم لزم قول جمهورهم وسوادهم؛ إيثاراً للسلامة؛ فالسلامة لا يعدها شيء.

وما أحسن قول ابن عاصم في «مرتقى الوصول»:

وواجب في مشكلات الفهم تحسيننا الظن بأهل العلم
ومن جملة المشكلات ردّ زلات العلماء، والمقالات الباطلة لأهل البدع والمخالفين، فإنما يتكلم فيها العلماء الراسخون.

بينه الشاطبي في «الموافقات» وابن رجب في «جامع العلوم والحكم».
فاجادة السالمة عرضها على العلماء الراسخين، والإستمسك بقولهم فيها.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر المصنّف وفقه الله معقداً آخرًا من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: **(رَدُّ مُشْكَلِهِ)** - أي: مُشْكِلُ الْعِلْمِ - **(إِلَى أَهْلِهِ)** العارفين به.

(فَالْمَعْظُمُ لِلْعِلْمِ يُعَوَّلُ عَلَى) على أربابه الأكابر في حلِّ مشكلاته، وأشار إلى هؤولاء الأكابر بقوله: **(يُعَوَّلُ عَلَى دَهَائِقَتِهِ وَالْجَهَابِذَةِ مِنْ أَهْلِهِ)**، والدّهاقنة: جمع دهقان؛ وهو: قوي التصرف في حدة، وداله مثلثة؛ فيقال: دهقان، ودُهقان، ودَهقان.

والمراد بالتثليث عند علماء اللغة: الحركات الثلاث؛ الكسر، والفتح، والضم. وقوله: **(والجهابذة)**؛ جمع جهبذ: بكسر الجيم وتفتح أيضًا؛ وهو: النقاد الخبير بيوطن الأمور.

فالمشكلات من العلم تُعرض على الموصوفين بهذه الأوصاف من قوة التصرف في العلم والخبرة الكاملة به.

قال: **(وَلَا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِمَا لَا تُطِيقُ)** - أي: لا يُدخِلُ نفسه بالكلام في المشكلات -؛ **(خَوْفًا مِنَ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى الدِّينِ، فَهُوَ يَخَافُ سَخَطَةَ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ يَخَافَ سَوْطَ السُّلْطَانِ، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ بِعِلْمٍ تَكَلَّمُوا، وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ سَكَّتُوا)**، فكلامهم الذي يبدر منهم هو كلامٌ بعلمٍ، وسكوتهم هو سكوتٌ عن بصيرٍ نافذٍ - أي: عقلٍ كاملٍ -، فإنَّ من بيان الحق ما يكون تارةً بالكلام، ومن بيان الحق ما يكون تارةً بالسكوت، فالكلامُ بيانٌ والسكوتُ بيانٌ، وكلُّ صالحٌ في مقامه المناسب له.

قال: **(فَإِنْ تَكَلَّمُوا فِي مُشْكَلٍ فَتَكَلَّمُوا بِكَلَامِهِمْ، وَإِنْ سَكَّتُوا عَنْهُ فَلْيَسْعَكَ مَا وَسِعَهُمْ)**؛ أي: إذا وقع أمر من الأمور المشكلة فتكلّم فيه العلماء فتكلّم فيه بكلامهم، ودع ما تزينه لك نفسك، وإن سكتوا عنه فليسعك ما وسعهم، فإن سكتوا فاسكت كما سكتوا.

ثُمَّ قَالَ: (وَمِنْ أَشَقِّ الْمَشْكَالَاتِ الْفِتْنُ الْوَاقِعَةُ وَالنَّوَازِلُ الْحَادِثَةُ الَّتِي تَتَكَاثَرُ مَعَ أَمْتِدَادِ الزَّمَنِ)؛ فهذه الفتن التي تقع في الناس، والنوازل التي تحدث بينهم مما لم يكن من قبل هي من أشقّ المشكلات التي ينبغي أن ترعى فيها ما تقدّم، فننظر إلى العلماء؛ فإن تكلموا فتكلّم بكلامهم، وإن سكتوا فاسكت كما سكتوا.

قال: (وَالنَّاجُونَ مِنْ نَارِ الْفِتَنِ، السَّالِمُونَ مِنْ وَهَجِ الْمِحَنِ؛ هُمْ مَنْ فَرَعَ إِلَى الْعُلَمَاءِ وَلَزِمَ قَوْلَهُمْ، وَإِنْ أَشْتَبَهَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِمْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِهِمْ، فَطَرَحَ قَوْلَهُ وَأَخَذَ بِقَوْلِهِمْ)؛ أي: إذا سمع منهم كلاماً لزمهم، وإن وقعت شبهة له إزاء كلامهم أحسن الظنّ بهم، فطرح قوله وأخذ بقولهم، أي: ترك قوله وأخذ بقولهم.

وعلّله بقوله: (فَالتَّجْرِبَةُ وَالخِبْرَةُ هُمُ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا)؛ أي: لهم من الخبرة والتّجربة ما ليس لك، وليس المراد بتلك الخبرة شيئاً يكون بالسّن فقط، بل شيئاً يكون بما يقع لهم من الاتّصال بوليّ الأمر، فليس الشّأن أن تجد ابن سبعين وابن سبعين يتكلمان، بل الشّأن أن يكون كلٌّ من المتكلّمين له علمٌ.

ثمّ ربما فضّل أحدهما على الآخر بأن تكون له درايةٌ بحقائق النّوازل الحادثة لاتّصاله بوليّ الأمر؛ فمثلاً: لأعضاء هيئة كبار العلماء عامّةً، واللجنة الدائمة خاصّةً، ومفتي البلاد خاصّةً خاصّةً من العلم بالوقائع والأحوال ما ليس لغيرهم من العلماء وإن شاركوهم في أسم العلم، فيكون لهؤلاء من البصيرة في تلك النوازل والحوادث ما لا يكون لغيرهم، ولو قدّر أنّه أعلم منهم أو أكبر منهم في السن.

قال: (وَإِذَا اخْتَلَفَتْ أَقْوَاهُمْ لَزِمَ قَوْلَ جُمْهُورِهِمْ وَسَوَادِهِمْ) - أي: أكثرهم - (إِيشَارًا لِلسَّلَامَةِ) - أي: عند الله سبحانه وتعالى -، (فَالسَّلَامَةُ لَا يَعْدُهَا شَيْءٌ)، فإنّ العبد إنّما يطلب العلم ليسلم من المطالبة بالأمر والنهي، فإذا عرضت هذه الحال فلزم الجادة فيها أصاب السّلامة عند الله سبحانه وتعالى، وليس المراد أن يسلم من كلام النّاس فيه، فإنّه «مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ

يسلم من كلام النَّاس فيه فهو مجنون» - كما قال الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -، لَكِنَّ الشَّأْنَ أَنْ تَسْلَمَ عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالنَّاسُ يَمْدَحُونَكَ تَارَةً وَيَقْدَحُونَ فِيكَ تَارَةً أُخْرَى، وَيَذْكُرُونَكَ بِخَيْرٍ تَارَةً، وَيَذْكُرُونَ بِشَرٍّ تَارَةً أُخْرَى، وَالْعَاقِلُ لَا يَرَعَى هَذَا فِي النَّاسِ فَهَذِهِ حَالُهُمُ الَّتِي جَعَلَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْهَا، لَكِنَّ يَرَعَى حَقَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي كَلَامِهِ، فَهُوَ يَتَكَلَّمُ مَعَ مِلَاحِظَةِ حَقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أَحَبَّ النَّاسِ أَمْ كَرَهُوا، مَدَحُوا أَمْ قَدَحُوا.

ثم قال: (وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ ابْنِ عَاصِمٍ فِي «مُرْتَقَى الوُصُولِ»:

وَوَاجِبٌ فِي مُشْكِلَاتِ الْفَهْمِ تَحْسِينُنَا الظَّنَّ بِأَهْلِ الْعِلْمِ

ثم قال: (وَمِنْ جُمْلَةِ الْمُشْكِلَاتِ رَدُّ زَلَّاتِ الْعُلَمَاءِ، وَالْمَقَالَاتِ الْبَاطِلَةِ لِأَهْلِ الْبِدْعِ وَالْمُخَالِفِينَ، فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِيهَا الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ. بَيَّنَّهُ الشَّاطِئِيُّ فِي «المُؤَافَقَاتِ» وَابْنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكْمِ»؛ لِأَنَّ الزَّلَّاتِ الصَّادِرَةَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْبِدْعَ الْوَاقِعَةَ فِي النَّاسِ مِنْ جِنْسِ الْمَشْتَبِهِ وَالْمُشَابِهِ، وَلَا يَتِمُّكَ مِنْ بَيَانِ الْحَقِّ فِيهِ مِنْ رَدِّ الزَّلَّةِ وَإِبْطَالِ الْبِدْعَةِ إِلَّا الْعَالِمُ الرَّاسِخُ، نَصَّ عَلَيْهِ الشَّاطِئِيُّ فِي «المُؤَافَقَاتِ» وَابْنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكْمِ»، وَطَالِبُ الْعِلْمِ وَوَضِيفَتُهُ تَبْلِيغُ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي الزَّلَّاتِ وَالْبِدْعِ؛ لِأَنَّ مَبَادِرَتَهُ إِلَى رَدِّ شَيْءٍ مَعَ عَدَمِ رَسُوخِ قَدَمِهِ رَبِّمَا أَوْقَعَهُ فِي الْبَاطِلِ، فَرَبِّمَا أَرَادَ رَدَّ بَدْعَةٍ فَوْقَ فِي بَدْعَةٍ أُخْرَى، وَرَبِّمَا أَرَادَ رَدَّ زَلَّةٍ فَوْقَ فِي زَلَّةٍ أُخْرَى.

وَمَنْ يَعْرِفُ أَحْوَالَ النَّاسِ عَلَى التَّفْصِيلِ يَرَى هَذَا فِيهِمْ جَلِيًّا؛ فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَقُومُ لِنَصْرَةِ السُّنَّةِ وَهُوَ لَمْ تَكْتَمِلْ آتِيهِ فِي رَسُوخِ الْقَدَمِ بِالرَّدِّ عَلَى بَدْعَةٍ أَوْ إِضْحَاحِ زَلَّةٍ، فَيَقَعُ فِيهَا يُقَابِلُ ذَلِكَ مِنَ الزَّلَّاتِ وَالْبِدْعِ، أَمَّا الْعَالِمُ الرَّاسِخُ فَإِنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ فِي رَدِّ بَدْعَةٍ رَدَّهَا بِالْحَقِّ، وَتَحَفَّظَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي بَدْعَةٍ أُخْرَى، وَكَذَا إِذَا بَيَّنَّ زَلَّةً بَيْنَهَا عَلَى وَجْهِ الْحَقِّ فَلَمْ يَقَعْ فِي زَلَّةٍ أُخْرَى.

ثم قال: (فَالجَادَّةُ السَّالِمَةُ عَرَضُهَا عَلَى الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، وَالِاسْتِمْسَاكُ بِقَوْلِهِمْ فِيهَا)؛ فالجادة السالمة من كل ما يفسدها إذا وقعت هذه المشكلات أن تعرضها على العلماء الراسخين، ثم إذا عرضتها عليهم أن تستمسك بقولهم في تلك المسألة. فمن الناس من يعرض عن هذه الجادة بإعراضه عن سؤال العلماء. فمثلاً: إذا وقعت واقعة من الحوادث؛ لا يذهب لسؤال العلماء، فتجده يسأل خطيب مسجدهم لأنه بليغ، أو يسأل رجلاً متكلماً لأنه له براعة في الكلام والبلاغة، أو يسأل شاعراً متحمساً ولا يسأل العلماء. وتارة أخرى تجد منهم من يسأل العلماء، فإذا أرشده إلى ما ينفعه أعرض عنهم وطلب غيرهم.

فيمكن الآن واحد منكم مثلاً يذهب إلى أحد العلماء في الإفتاء أو غيره فيسأله: ما رأيك في التدخّل الروسي في سوريا؟، فيقول: يا ولدي أشتغل بما ينفعك، فلا يعجبه هذا الكلام، ويذهب ويطلب غيره، يقول: ما وجدت عندهم جواب، وهذا الذي قاله لك ما هو؟، أليس جواباً؟ قال: أشتغل بما ينفعك، أنت عليك وظائف من العبودية، وهذه الأمور قد جاء البيان في القرآن فيها، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]؛ فهذه الوظيفة تُردُّ إلى من بيده الأمر من ولاية الحكم والسُّلطان، وولاية العلم والفتيا، والذي ليس له شيء من الأمر لا تُردُّ إليه، والمتولّي للأمر يعرف الطريق النافع في تدبيره، فاشتغل أنت بما ينفعك، ودع غيرك متولياً لما سيسأله الله سبحانه وتعالى عنه، وأجتهد أنت فيما ينفعك، لتتفنع الناس فيما يُستقبل إذا احتيج إليك، ولا تجد أحداً يقفز هذه القفزات ويورد نفسه على ما ليس لها إلا سقط على أم رأسه.

فقد رأينا في سالف الأيام من أجابه العلماء بمثل هذه الأجوبة فضايق صدره بها وأنتهى به الأمر إلى تكفير الناس في هذا البلد علماء وأمراء والخروج عليهم بالسلاح، كان سؤاله للمشايخ هكذا وكان جوابهم هكذا، لكنّه لم يستنصح وأبى حتى أنتهى أمره إلى تكفير الناس في هذا البلد، بدأ شيئا فشيئا بتكفير الحكومة، ثم بعد ذلك بتكفير الجنود الذين يعملون عندها، ثم بتكفير العلماء لأنهم ساكتون عن بيان الحق، ثم بتكفير سائر الناس لأنهم ساكتون عن الكفر بالطاغوت، ولا يكفرون بالطاغوت، فلا يكفر بالطاغوت عنده إلا فلان وفلان وفلان، هؤلاء هم الكافرون بالطاغوت، وباقي الناس هم كفار عنده، فانتهى الأمر إلى أن خرج بالسلاح ثم قتل، وكان مبتدأ أمره أنه سأل هذه السؤالات فقبل له: أشتغل بما ينفعك، لكنّه لم يشتغل بما ينفعه.

والمرء ينبغي أن يعظ نفسه بغيره، فالسعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ الناس به، الشقي هو الذي يقع فريسة لهذه الأهواء في أبواب العلم أو أبواب العمل، أو أبواب الدعوة، أو أبواب الجهاد أو غيرها، ثم يعرض فيها عن الحق الحقيقي ويقع في الشرور التي تنتهي به إلى سوء العاقبة والمآل.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد السادس عشر توقير مجالس العلم، وإجلال أوعيته

فمجالس العلماء كمجالس الأنبياء.

قال سهل بن عبد الله: «من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء، يجيء الرجل فيقول: يا فلان؛ أي شيء تقول في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا؟، فيقول: طلق امرأته، ويجيء آخر فيقول: ما تقول في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا؟، فيقول: ليس يحنث بهذا القول، وليس هذا إلا لنيي أو لعالم، فاعرفوا لهم ذلك».

فعلى طالب العلم أن يعرف لمجالس العلم حقها، فيجلس فيها جلسة الأدب، ويصغي إلى الشيخ ناظرًا إليه؛ فلا يلتفت عنه من غير ضرورة، ولا يضطرب لضجة يسمعها، ولا يعبث بيديه أو رجليه، ولا يستند بحضرة شيخه، ولا يتكئ على يده، ولا يكثر التحنح والحركة، ولا يتكلم مع جاره، وإذا عطس خفض صوته، وإذا تشاءب ستر فمه بعد رده جهده.

وينضم إلى توقير مجالس العلم إجلال أوعيته التي يحفظ فيها، وعماؤها الكتب، فاللائق بطالب العلم: صون كتابه، وحفظه وإجلاله، والاعتناء به، فلا يجعله صندوقًا يحشوه بودائع، ولا يجعله بوقًا، وإذا وضعه وضعه بلطف وعناية.

رمى إسحاق بن راهويه يومًا بكتاب كان في يده، فراه أبو عبد الله أحمد ابن حنبل، فغضب وقال: «أهكذا يفعل بكلام الأبرار؟!».

ولا يتكئ على الكتاب، أو يضعه عند قدميه، وإذا كان يقرأ فيه على شيخ رفعه عن الأرض وحمله بيديه.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر المصنّف وفقه الله معقداً آخرًا من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: **(تَوْقِيرُ مَجَالِسِ الْعِلْمِ، وَإِجْلَالُ أَوْعِيَتِهِ)**، وأوعية العلم: ما يُحْفَظُ وَيُثَبَّتُ فِيهَا، وعمادها: الكتب، ومن جنسها: الأشرطة الصوتية، وما جرى مجراها، فإنّها تُسَمَّى: أوعية العلم.

ثم ذكر ما يدعو إلى توقير مجالس أهل العلم بقوله: **(فَمَجَالِسُ الْعُلَمَاءِ كَمَجَالِسِ الْأَنْبِيَاءِ)**؛ لأنّهم يقومون بالنبابة عنهم فيها؛ فإنّ مجالس الأنبياء كانت لبيان حكم الله، ومجالس العلماء ليس فيها إلا بيان حكم الله، وذكر فيها كلام **(سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ)** التُّسْتَرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: **(«مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَجَالِسِ الْأَنْبِيَاءِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ»)**؛ أي: لأنّها تحاكيها، فهي شبيهة بها؛ لما فيها من بيان حكم الله عَزَّوَجَلَّ فيما يحتاج إليه النَّاسُ كالمذكور في كلامه.

ثم قال: **(فَعَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَعْرِفَ لِمَجَالِسِ الْعِلْمِ حَقَّهَا، فَيَجْلِسَ فِيهَا جِلْسَةَ الْأَدَبِ)** - أي: الجلسة المتأدّب فيها -، **(وَيُضْغِي إِلَى الشَّيْخِ نَاطِرًا إِلَيْهِ)** - أي: يُقْبِلُ عَلَى الشَّيْخِ مُلْقِيًا نَظْرَهُ إِلَيْهِ، **(فَلَا يَلْتَفِتُ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ، وَلَا يَضْطَرُّ لِيَضْجَةٍ يَسْمَعُهَا)**؛ أي: لا يتحرّك لأجل صوت عالٍ سمعه، فإنّه جلس هنا لأجل العلم ولم يجلس لأجل أن يستمع إلى مصادر الأصوات التي يسمعها هنا أو هناك.

(وَلَا يَعْثُ بِيَدَيْهِ أَوْ رِجْلَيْهِ، وَلَا يَسْتَنْدُ بِحَضْرَةِ شَيْخِهِ، وَلَا يَتَّكِي عَلَى يَدِهِ، وَلَا يُكْثِرُ التَّنَحُّنَ وَالْحَرَكَةَ، وَلَا يَتَكَلَّمُ مَعَ جَارِهِ، وَإِذَا عَطَسَ خَفَضَ صَوْتَهُ، وَإِذَا تَنَاءَبَ سَتَرَ فَمَهُ بَعْدَ رَدِّهِ جَهْدَهُ)، فإنّ المذكورات أنواعٌ من فنون حفظ حقّ مجلس العلم.

ثم قال: **(وَيَنْضَمُّ إِلَى تَوْقِيرِ مَجَالِسِ الْعِلْمِ إِجْلَالُ أَوْعِيَتِهِ الَّتِي يُحْفَظُ فِيهَا، وَعِمَادُهَا الْكُتُبُ، فَاللَّائِقُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ: صَوْنُ كِتَابِهِ، وَحِفْظُهُ وَإِجْلَالُهُ، وَالاعْتِنَاءُ بِهِ، فَلَا يَجْعَلُهُ صُنْدُوقًا يَحْشُوهُ بَوَدَائِعِهِ)**؛ أي: لا يجعله بمنزلة الصندوق الذي يحفظ فيه الأشياء، فتجده يضع هنا أوراقاً كثيرة، ثم بعد ذلك يضع بطاقات له، ثم بعد ذلك يضع أقلاماً، فكأنّه أنزل الكتاب

منزلة الصُّندوق في حِفْظِ الأشياءِ.

قال: **(وَلَا يَجْعَلُهُ بُوقًا)**؛ أي: لا يجعله بمنزلة البوق بأن يردَّ بعضه على بعضٍ، بأن يمسكه على صورة البوق الذي يُنفخ فيه، أو يمسكه حال القراءة بأن يجعله نصفَ بوقٍ، فإمَّا أن يجعله هكذا أو يجعل بعضه هكذا، فإن هذا من خلاف الأدب مع الكتاب، فإنَّ الكتاب يُحفظ ويُرفع باليدين أو أحدهما، ببسطه، لا بطيِّ بعضه.

قال: **(وَإِذَا وَضَعَهُ وَضَعَهُ بِلُطْفٍ وَعِنَايَةٍ)**؛ أي: إذا وضع الكتاب على الأرض أو غيرها فإنه يضعه بلطفٍ وعنايةٍ.

قال: **(رَمَى إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَةَ يَوْمًا بِكِتَابٍ كَانَ فِي يَدِهِ)** أي: أقبل ومعه كتاب فرماه على الأرض، **(فَرَأَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، فَغَضِبَ وَقَالَ: «أَهَكَذَا يُفَعَّلُ بِكَلَامِ الْأَبْرَارِ؟!»)**؛ يعني: أهكذا يهون على الإنسان أن يلقي بشدة كتابًا فيه كلام الأبرار - أي: أهل البرِّ والطاعة -، فكيف إذا كان فيه القرآن والسنة؟!، هذا أعظم، تجدُّ بعض الإخوان يأتي بـ«العقيدة الواسطية» أو بـ«كتاب التوحيد» ثم بعد ذلك يرميه ويلقيه على الأرض بشدة، فإذا قيل: يا أخي، فيه آيات، وفيه أحاديث، قال: يا أخي! هذا تشدُّدٌ؛ هذا ليس بتشدُّد، هذا الأدب، والحال التي تفعلها أنت حال ضياع، هذا سوء أدب مع كلام الله وكلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكتب أهل العلم، فالأدب أن تجعله على الأرض إن شئت بلطف وعناية، وإن تمكنت من أن تجعله بين يديك في مكان مرتفع فهذا أكمل في حفظ العلم وتوقيره وإجلاله.

ثم قال: **(وَلَا يَتَّكِي عَلَى الْكِتَابِ، أَوْ يَضَعُهُ عِنْدَ قَدَمَيْهِ، وَإِذَا كَانَ يَقْرَأُ فِيهِ عَلَى شَيْخٍ رَفَعَهُ عَنِ الْأَرْضِ وَحَمَلَهُ بِيَدَيْهِ)**، فإذا كان يقرأ في الكتاب على الشيخ فإنه يرفعه على الأرض ويحمله بيده ويقرأ فيه على هذه الصفة.

وخلاف ذلك هو خلاف الأدب، ومن لم يتأدب مع أوعية العلم لن ينال ما فيها من

العلم، فإذا لم تستعمل الأدب معها لن تنال العلم، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يحفظ حُرْمَ أهلها، ومن حفظ حُرْمَةَ أهلها أن يجبس الله عن المتعلم العلم الذي فيها.

نحن صرنا إلى حالٍ لا ندري نبكي أم نضحك، فأحدهم يحضر الدرس وقد وضع الكتاب - يا إخوان - بين قدميه ومسنديه بهما، هذا يحصل العلم؟!، لا يمكن، بلسان الفطرة لو يراه إنسان يقول: هذه ليست حال إنسان يطلب العلم، الذي يطلب العلم يُقبل على الكتاب الذي يأخذ منه العلم بتعظيم وإجلال، لا أن يلقيه بدون عناية، ثم يريد أن يكون العلم الذي في الكتاب في قلبه، الله عَزَّوَجَلَّ يحفظ العلم عن هذه القلوب المدنسة، ما يجعل العلم فيها، ولو حفظوا المعلومات لا يتفعلون بها في الاستنباط والفهم والعمل والدعوة والإصلاح.

لكن ذهب أهل الغيرة، فأهل الغيرة على العلم ما يسمحون بهذا؛ بل يطردون الطالب؛ حَضَرَ فِي مَجْلِسِ شَيْخِنَا مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ الْجَرَّاحِ فَقِيهِ الْكُوفِيِّ رَحِمَهُ اللهُ رَجُلٌ، فَطَوَى الْكِتَابَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ - يَعْنِي: صُورَةَ بُوقٍ -، فَزَجَرَهُ الشَّيْخُ وَأَرْشَدَهُ إِلَى حَمْلِهِ حَمَلًا رَفِيقًا، ثُمَّ أَعَادَ ثَانِيَةً، فَنَبَّهَهُ الشَّيْخُ، ثُمَّ أَعَادَهُ ثَالِثَةً فَطَرَدَهُ الشَّيْخُ وَأَمَرَهُ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ مَجْلِسِهِ، هَذَا هُوَ الدَّوَاءُ، بَعْضُ النَّاسِ مَا يَنْفَعُ مَعَهُ إِلَّا الْكَيْ، إِذَا كَانَ شَيْخُكَ الْمَعْلَمُ يَعْلَمُكَ الْأَدَبَ مَعَ الْعِلْمِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لَا تَبَالِي، وَتَقُولُ: هَذَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فِي السُّنَنِ، هَذَا عَلَى طَرِيقَةِ الْأَوَّلِينَ، النَّاسُ الْحَمْدُ لِلَّهِ تَطَوَّرُوا الْآنَ، لَسْنَا مَتَعَبِّدِينَ بِهَذَا الشَّيْءِ، وَلَا نَعْلَمُ دَلِيلًا مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عَلَى أَنَّكَ لَا تَضَعُ الْكِتَابَ هَكَذَا، فَهَذَا لَا يَنَالُ عِلْمَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، هَذَا مَا لَهُ إِلَّا أَنْ يُخْرَجَ مِنَ الْمَجْلِسِ.

حتى العوام عندنا كان عندهم تعظيم للعلم، وما كانوا يرضون بهذه الأشياء.

مرة أحدهم عندنا في نجد، أتاه ناسٌ منتسبين للطلب، فصنع عليهم عشاء، فجعلوا يتكلمون في العلم قبل العشاء، فأحدهم لما ذكروا مسألة أساء الأدب مع ابن القيم، قال:

أبن القيم عليه أشياء وأشياء، وكان كذا وكان كذا، فقام الرجل وقال: المجلس يتعذركم، والذين يتكلمون في ابن القيم ليس لهم عندي عشاء، هَذَا صاحب الدين الصحيح، فهم أساءوا الأدب مع عالمٍ معروفٍ، وإن أخطأ فيما أخطأ فيه، فلا يكون ذلك بتقليل الأدب معه، وهضم جنابه، وإرسال اللسان في الكلام فيه بغير حقٍّ، بل يبين خطؤه بقدر ما يندفع به الخطأ، أما الزيادة عن ذلك بالتشريب والعيب والتنقص ونحو ذلك؛ فهَذَا ليس من الدين، وصاحب الدين المكين لا يرضى بهَذَا في مجلسه، هَذَا كان رجلاً عامياً، لكن كان يجلس عند العلماء ويسمع أن ابن القيم عالمٌ ممن خدم الإسلام، وله مآثر حسان فيه، فلما سمع كلامهم فيه قال لهم: المجلس يتعذركم، والذي لا يحفظ قدر ابن القيم ليس له عندي عشاء؛ هَذِهِ الحال شديدةٌ على الناس عندنا، أن يأتي ضيوفٌ ولا يكرمهم، لكن هؤلاء الذين لا يحفظون قدر ابن القيم وأمثاله من العلماء لا يستحقون الإكرام.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد السابع عشر
الذب عن العلم، والذود عن حياضه

إِنَّ لِلْعِلْمِ حُرْمَةً وَافِرَةً، تُوجِبُ الْاِنْتِصَارَ لَهُ إِذَا تُعْرِضَ لِجَنَابِهِ بِمَا لَا يَصْلُحُ.
وَقَدْ ظَهَرَ هَذَا الْاِنْتِصَارُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي مَظَاهِرٍ مِنْهَا:
الرَّدُّ عَلَى الْمُخَالَفِ، فَمَنْ أَسْتَبَانَتْ مُخَالَفَتُهُ لِلشَّرِيعَةِ رُدَّ عَلَيْهِ كَاثِنًا مَنْ كَانَ؛ حَمِيَّةً لِلدِّينِ
وَنَصِيحَةً لِلْمُسْلِمِينَ.
وَمِنْهَا: هَجْرُ الْمُبْتَدِعِ؛ ذَكَرَهُ أَبُو يَعْلَى الْفَرَّاءُ إِجْمَاعًا.
فَلَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ عَنْ أَهْلِ الْبِدْعِ، لَكِنْ إِذَا أُضْطُرَّ إِلَيْهِ فَلَا بَأْسَ؛ كَمَا فِي الرَّوَايَةِ عَنْهُمْ لَدَى
الْمُحَدِّثِينَ.
وَمِنْهَا: زَجْرُ الْمُتَعَلِّمِ إِذَا تَعَدَّى فِي بَحْثِهِ، أَوْ ظَهَرَ مِنْهُ لَدَدٌ أَوْ سُوءُ أَدَبٍ.
وَإِنْ أَحْتَاَجَ الْمُعَلِّمُ إِلَى إِخْرَاجِ الْمُتَعَلِّمِ مِنْ مَجْلِسِهِ؛ زَجْرًا لَهُ، فَلْيَفْعَلْ؛ كَمَا فَعَلَ سُفْيَانُ، وَكَمَا
كَانَ يَفْعَلُهُ شُعْبَةُ مَعَ عَفَّانَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي دَرْسِهِ.
وَقَدْ يُزَجَّرُ الْمُتَعَلِّمُ بَعْدَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَتَرْكِ إِجَابَتِهِ، فَالْسُّكُوتُ جَوَابٌ؛ قَالَ الْأَعْمَشُ.
وَرَأَيْنَا هَذَا كَثِيرًا مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الشُّيُوخِ؛ مِنْهُمْ الْعَلَّامَةُ أَبُو بَازٍ، فَرُبَّمَا سَأَلَهُ سَائِلٌ عَمَّا لَا
يَنْفَعُهُ، فَتَرَكَ الشَّيْخُ إِجَابَتَهُ، وَأَمَرَ الْقَارِئَ أَنْ يُوَاصِلَ قِرَاءَتَهُ، أَوْ أَجَابَهُ بِخِلَافِ قَصْدِهِ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر المصنّف وفقه الله معقداً آخرًا من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: **(الذَّبُّ عَنِ الْعِلْمِ، وَالذُّودُ عَنِ حَيَاضِهِ)**؛ أي: الدَّفْعُ عَنِ الْعِلْمِ، وحماية موارده؛ لأنَّ **(لِلْعِلْمِ حُرْمَةً وَافِرَةً، تُوجِبُ الْإِنْتِصَارَ لَهُ إِذَا تُعْرِضُ لِجَنَابِهِ بِمَا لَا يَصْلُحُ)**، فالعلم من شعائر الدين، وله حُرْمَةٌ مُعْظَمَةٌ.

ثم ذكر مظاهر هذا الانتصار عند أهل العلم، فمنها: **(الرَّدُّ عَلَى الْمُخَالِفِ، فَمَنْ أَسْتَبَانَتْ مُخَالَفَتُهُ لِلشَّرِيعَةِ رُدَّ عَلَيْهِ كَأَنَّ مَنْ كَانَ؛ حَمِيَّةً لِلدِّينِ وَنَصِيحَةً لِلْمُسْلِمِينَ)**، و«لم يزل النَّاسُ يردُّ بعضهم على بعض». قاله الإمام أحمد.

فمن بدر منه شيءٌ خالف فيه الشريعة فإنه يُردُّ عليه حفظًا للشريعة، ولا يُمنع من الردِّ، فليس الردُّ على المخالف مستثنىً مستبشعًا ما لم يخرج عن جادة الشريعة، وشرطه كما ذكر ابن رجب: إذا أحسن الخطاب وأصاب الجواب، فالردُّ على المخالف ممدوحٌ بجمع هذين الأمرين:

فأحدهما: إصابة الحقِّ في رده.

والآخر: سلوك الأدب الحسن فيه.

ثم قال: **(وَمِنْهَا: هَجْرُ الْمُبْتَدِعِ؛ ذَكَرَهُ أَبُو يَعْلَى الْفَرَّاءُ إِجْمَاعًا)**، فإنَّ المبتدع يُهجَر؛ حفظًا للدين وحمايةً له، **(فَلَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ عَنِ أَهْلِ الْبِدْعِ)**، فالأصل أن العلم لا يُؤخذ إلا عن السُّنَنِ السَّالِمَةِ مِنَ الْبِدْعِ، **(لَكِنْ إِذَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ)** - كدراسة نظامية لا محيد عنها - **(فَلَا بَأْسَ)**، قال: **(كَمَا فِي الرَّوَايَةِ عَنْهُمْ لَدَى الْمُحَدِّثِينَ)**، فإنه تحدُّثُ للنَّاسِ أحوال تستدعي مثل هذه الأحكام.

قال: **(وَمِنْهَا: زَجْرُ الْمُتَعَلِّمِ إِذَا تَعَدَّى فِي بَحْثِهِ، أَوْ ظَهَرَ مِنْهُ لَدَدٌ)** - أي: خصومة - **(أَوْ سُوءُ آدَبٍ)**، فإذا تجاوز المتعلم حدَّه في البحث - أي: في مراجعة شيخه في العلم -، أو ظهر

منه خصومة أو سوء أدب؛ فإن من الانتصار للعلم أن يُزجر المتعلم بأن يُنهى عن ذلك ويُقطع الكلام في العلم معه.

قال: (وَإِنْ أَحْتَاجَ الْمُعَلِّمُ إِلَى إِخْرَاجِ الْمُتَعَلِّمِ مِنْ مَجْلِسِهِ؛ زَجْرًا لَهُ، فَلْيَفْعَلْ)؛ أي: ولو أضطرَّ المعلم إلى استصلاح المتعلم بزجره بأن يُخرجه من مجلسه فليفعل؛ (كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ شُعْبَةُ) - وهو ابن الحجاج رَحِمَهُ اللهُ - (مَعَ عَفَّانَ بْنِ مُسْلِمٍ) الصَّفَّارِ (فِي دَرْسِهِ).

فكان عفان يراجع شعبة في الحديث، فيثقل ذلك على شعبة فيخرجه شعبة من مجلسه، وكان يفعل عفان يرجع مرّة ثانية في المجالس الأخرى، فيترك شعبة حتى يطيّب خاطره ويتسع صدره، ثم يرجع إليه في مجلس آخر، وإذا أخرج رجوع إليه ونفسه طيبة.

الآن في الجامعة: الدكتور يطرد الطالب من القاعة فيخرج، ووفي المحاضرة الثانية يحضر وفي نفسه كراهية، أما عفان فكان يحضر وليس في نفسه كراهية؛ لأنّه حريص على العلم، ويعرف أنّ معلمه ما فعل هذا إلا لأجل منفعة.

أما الآن لو أن معلّمًا قام في المسجد، وقال لطالب: لو سمحت يا أخي، أخرج؛ لأنك غير مؤدب، لاستعظم الناس هذا، وقالوا: كيف يطرد الناس من بيوت الله؟!، هذا يصدُّ الناس عن مساجد الله، ويذكرون الآيات والأحاديث في ذلك، وهذا من الجهل، وإلا فمن توقيير العلم وإعظامه أنّ الذي لا يتأدّب مع العلم ولا يحفظ قدره ليس له إلا الطرد، سواء رجع وأناب وأنتفع أم لا.

ولذلك لما كان مشايخنا رَحِمَهُمُ اللهُ يستعملون هذا نفعا وأنتفعا، ففي أحد مجالس شيخنا الشيخ فهد بن حُمين رَحِمَهُ اللهُ ظهر من بعض مَنْ كان يجلس معه لددٌ وخصومة في مراجعته في العلم، وكان في ملحِقٍ خارج بيته في غير الدروس التي في مسجده، فقام رَحِمَهُ اللهُ وأطفأ النور، وقال: المجلس يتعدّركم، ودخل وتركهم، وقال: إذا أردتم أن تجلسوا أجلسوا، وإذا

أردتم أن تخرجوا أخرجوا؛ لأنَّه لا يصلحهم إلا مثل هذه الحال، فتجده يستعمل معهم هذه الحال لأنَّها أنفع.

والشيخ عبد الله بن حميد رَحِمَهُ اللهُ وكان كفيلاً لما كان في مجلسه مرَّةً وتكلَّم بعض الناس بكلام في مسألة يتكلم فيها طرده الشيخ من المجلس، قال: لا تحضر دروسنا جزاك الله خيراً.

أحد المشايخ الذين يُدرِّسون الآن وله في العلم حظٌّ وافراً مرَّةً طرده أحد المشايخ رَحِمَهُ اللهُ من المسجد؛ لأنَّه جاء إليه أول مرة فجلس إليه فتكلم في العلم، والشيخ لا يعرف من هو هذا الطالب، فقال له مباشرة: إن كنت ذا علم فلا تحضر مجلسنا، أذهب جزاك الله خيراً، نحن عندنا درس فأمش.

فخرج ذلك الرجل؛ لأنَّه عرف أن الشيخ غضب، لكنَّه أنتظر خارج المسجد حتَّى خرج الشيخ، فقبَّل رأسه وأعتذر وقال: أنا فلان، وأنا حضرت عند فلان وفلان وفلان، وأريد أن أحضر عندكم، قال: حياك الله، لكن يا ولدي، إذا جئت مجلس علم فلا تتكلم فيه والناس لا تعرفك حتى لا يسيئون الظن بك.

فلما كانوا هكذا أنتفع النَّاسُ، ولما صار الآن لا يباليون بتأديب المتعلم، ويقولون: ينبغي أن ترفق بالناس؛ ليس الرفق هو الضَّعف، بل من الرفق أحياناً الدَّواء المرُّ، فالطبيب يعطي أحياناً المريض دواءً مرًّا لأنَّه يرفق به، ولدلِّكم سُمِّي الطبيب رقيقاً؛ لأنَّه يرفق، فالطبيب يُسمى (طبيباً) ويُسمى أيضاً (رقيقاً).

فينبغي أن يكون المتعلم عارفاً بهذًا، وإذا وقع من معلِّمه زجرٌ له يعرف أن المراد هو منفعتُه، ليس هو منفعة المعلِّم، فإذا تركك المعلِّم في سهوك وهوك وخطئك رجع عليك هذا بالضرر، لكنَّ المعلِّم إذا دلَّك على ما ينفعك فاعرف أنَّه ينفعك.

ولذلك كان المعلمون النابغون يدلّون الناس على الخير، فمنهم من ينتفع بتلك الدلالة، ومنهم من لا ينتفع بتلك الدلالة، لأنه لا يابه بها ولا يقيم لها وزناً.

ذكر الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ أنه حضر مرة عند شيخنا فهدى بن حمين رحمه الله، فسأله قوم عن مسألة تتعلق بولي الأمر، فقال رحمه الله تعالى: ليس لنا رأي فيها، أو نحو هذه الكلمة، فلم يجبهم على ما يريدون، فلما خرجوا سأله الشيخ صالح: لماذا أجبتهم هكذا؟، قال: لا لي إن أجبتهم بشيء أتخذوه سُخْرِيًّا، فهم لا يريدون هذا الجواب، وإن قابلتهم بغيره لم ينتفعوا به، فقلت: هذا الجواب ينتفع به غيرهم، سواء أنتفعوا هم أم لم ينتفعوا فهذا راجع إليهم، فانتفع الشيخ صالح؛ حيث أنه لما رأى جواب شيخه لهم على هذه الصورة، وتعامله معهم على هذه الحال، سأله لماذا؟، حتى يستعمل هذا الأدب الذي رآه من شيخه مع المتعلمين فيما يستقبل، فيمن يتجدد ممن يحاكيهم في فعلتهم. وهذا كثير ممن يلاحظ هذا عند العلماء ويتفطن له.

ثم قال بعد ذلك: (وقد يزجر المتعلم بعدم الإقبال عليه وترك إجابته، فالسكوت جواب؛ قال الأعمش)، فأحياناً قد تسأل شيخك سؤالاً ولا يجيبك؛ لأن سكوت جواب، فيرى أن الأنفع لك أن يسكت ولا يجيبك عن هذا السؤال.

قال: (ورأينا هذا كثيراً من جماعة من الشيوخ؛ منهم العلامة ابن باز، فربما سأله سائل عمّا لا ينفعه) - يعني: لا ينفع السائل - (فترك الشيخ إجابته، وأمر القارئ أن يواصل قراءته، أو أجابه بخلاف قصده)؛ يعني: أجابه بجوابٍ يخالف قصد السائل؛ فسئل رحمه الله مرة في أيام انعقاد ما يُسمى بـ(مهرجان الجنادرية)، قال له أحدهم: أحسن الله إليكم، ما حكم الغناء في الجنادرية؟، وكان السائل يقصد عيب هذا المهرجان، وأن يوجه الشيخ كلامه إليه، فقال له الشيخ: الغناء حرام في الجنادرية وغير الجنادرية؛ حتى لا يُظن أن الجواب لأجل هذا الأمر فقط، فذلك الذي سأل يشتهي أن يسمع كلاماً في التفسير عن هذا وعيبه وثلبه ببيان

حُكْمُ الْغِنَاءِ، فَأَجَابَهُ الشَّيْخُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى حُرْمَتِهِ سِوَاءَ كَانِ فِي الْجِنَادِرِيَّةِ أَوْ فِي غَيْرِ الْجِنَادِرِيَّةِ، وَهَذِهِ هِيَ نَظْرَةُ الْعَالَمِ الْكَامِلِ الَّذِي يَطْلُبُ حَقَّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَالْحُكْمُ عِنْدَهُ وَاحِدٌ لَا يَخْتَلِفُ، سِوَاءَ كَانِ مَعَ فُلَانٍ أَوْ كَانِ مَعَ فُلَانٍ، لِأَنَّكَ تَجِدُ بَعْضَ النَّاسِ الْآنَ إِذَا وَقَعَ إِنْسَانٌ فِي خَطِيئَةٍ فَيَجْعَلُهُ خَطِيئًا وَيَجْمَعُ عَلَيْهِ خَيْلَهُ وَرَجْلَهُ، وَيَقَعُ هَذَا الْخَطِيئَةَ نَفْسُهُ مِنْ آخِرِ فَتَجِدُهُ لَا يَبَالِي بِهِ، فَلِمَاذَا الْوِزْنَ بِمِيزَانَيْنِ؟!؛ مَا هُوَ إِلَّا لَضَعْفِ الدِّينِ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، وَإِلَّا فَالْعَبْدُ كَامِلُ الْعِبَادِيَّةِ يَجْعَلُ النَّاسَ جَمِيعًا عَلَى مَعْيَارِ الشَّرِيعَةِ، وَلَا يَجْعَلُ لِهَذَا مَعْيَارًا وَلِهَذَا مَعْيَارًا.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد الثامن عشر التحفظ في مسألة العالم

فَرَارًا مِنْ مَسَائِلِ الشُّغْبِ، وَحِفْظًا لِهَيْبَةِ الْعَالِمِ؛ فَإِنَّ مِنَ السُّؤَالِ مَا يُرَادُ بِهِ الشُّغْبُ وَإِيقَاطُ الْفِتْنَةِ وَإِشَاعَةُ السُّوءِ، وَمَنْ أَنْسَ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ هَذِهِ الْمَسَائِلَ لَقِيَ مِنْهُمْ مَا لَا يُعْجِبُهُ، كَمَا مَرَّ مَعَكَ فِي زَجْرِ الْمُتَعَلِّمِ، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّحْفُظِ فِي مَسْأَلَةِ الْعَالِمِ، وَلَا يُفْلِحُ فِي تَحْفُظِهِ فِيهَا إِلَّا مَنْ أَعْمَلَ أَرْبَعَةَ أَصُولٍ:

أَوَّلُهَا: الْفِكْرُ فِي سُؤَالِهِ لِمَاذَا يُسْأَلُ؟، فَيَكُونُ قَصْدُهُ مِنَ السُّؤَالِ التَّفْقُّهُ وَالتَّعَلُّمُ، لَا التَّعَنُّتُ وَالتَّهَكُّمُ؛ فَإِنَّ مَنْ سَاءَ قَصْدُهُ فِي سُؤَالِهِ يُحْرَمُ بَرَكَاتِ الْعِلْمِ، وَيُمنَعُ مَنَفَعَتَهُ.
الْأَصْلُ الثَّانِي: التَّفَطُّنُ إِلَى مَا يُسْأَلُ عَنْهُ، فَلَا تَسْأَلُ عَمَّا لَا نَفْعَ فِيهِ؛ إِمَّا بِالنَّظَرِ إِلَى حَالِكَ، أَوْ بِالنَّظَرِ إِلَى الْمَسْأَلَةِ نَفْسِهَا.

وَمِثْلُهُ السُّؤَالُ عَمَّا لَمْ يَقَعْ، أَوْ مَا لَا يُحْدِثُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يُخَصُّ بِهِ قَوْمٌ دُونَ قَوْمٍ.
الْأَصْلُ الثَّلَاثُ: الْإِنْتِبَاهُ إِلَى صِلَا حِيَّةِ حَالِ الشَّيْخِ لِلْإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالِهِ، فَلَا يُسْأَلُهُ فِي حَالٍ تَمْنَعُهُ؛ كَكُونِهِ مَهْمُومًا، أَوْ مُتَفَكِّرًا، أَوْ مَاشِيًا فِي طَرِيقٍ، أَوْ رَاكِبًا سَيَّارَتَهُ، بَلْ يَتَحَيَّنُ طَيْبَ نَفْسِهِ.

الْأَصْلُ الرَّابِعُ: تَيْقُظُ السَّائِلِ إِلَى كَيْفِيَّةِ سُؤَالِهِ، بِإِخْرَاجِهِ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ مُتَأَدِّبَةٍ، فَيَقْدِمُ الدُّعَاءَ لِلشَّيْخِ، وَيُبَجِّلُهُ فِي خِطَابِهِ، وَلَا تَكُونُ مُحَاظَبَتُهُ لَهُ كَمُحَاظَبَتِهِ أَهْلَ السُّوقِ وَأَخْلَاطِ الْعَوَامِّ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر المصنّف وفقه الله معقداً آخرًا من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: **(التَّحْفُظُ فِي مَسْأَلَةِ**

العَالِمِ) - أي: طلبُ الصِّيَانَةِ وَحِفْظِ النَّفْسِ فِيهَا.

والحامل على ذَلِكَ التَّحْفُظُ هو الفرار من مسائل الشَّعْبِ؛ - والشَّعْبُ: تهييج الشرِّ

وتحريكه -، فالعبد يتَحْفَظُ في سؤاله لئلا يبادر إلى سؤالٍ يتولَّد منه شرٌّ.

ثم ذكر أن التحفظ في مسألة العالم يكون بإعمال **(أَرْبَعَةِ أَصُولٍ)**:

(أَوَّلُهَا: الْفِكْرُ فِي سَوْأَلِهِ لِمَاذَا يَسْأَلُ؟)؛ فهو ينظر في سؤاله الذي يسوقه؛ لأيِّ شيءٍ يسأل؟،

قال: **(فَيَكُونُ قَصْدُهُ مِنَ السُّؤَالِ التَّفَقُّهُ وَالتَّعَلُّمُ، لَا التَّعَنُّتُ وَالتَّهَكُّمُ)**، فهو يطلب أن ينال

بسؤاله فقهاً وعلماً، وليس مراده إجماء العالم إلى العنتِ - وهو الضيق والخرج -، ولا

السُّخْرِيَّةَ به - وهي المرادة بالتَّهَكُّمِ.

قال: **(فَإِنَّ مَنْ سَاءَ قَصْدُهُ فِي سَوْأَلِهِ يُحْرِمُ بَرَكََةَ الْعِلْمِ، وَيَمْنَعُ مَنَفَعَتَهُ)**؛ فسيء القصد فيما

يبدر منه من أسئلةٍ يلقيها يريد بها مقاصدَ خفيةً يُحْرِمُ بَرَكََةَ الْعِلْمِ، ولا تصلُّ إليه منفعته.

و**(الْأَصْلُ الثَّانِي: التَّفَطُّنُ إِلَى مَا يَسْأَلُ عَنْهُ، فَلَا تَسْأَلُ عَمَّا لَا نَفْعَ فِيهِ)**، وهذا الذي لا نفع

فيه **(إِمَّا بِالنَّظَرِ إِلَى حَالِكَ)**؛ أي: بكون السؤال عن هذا لا نفع فيه بالنظر إلى حالك؛

كالمسألة السابق ذكرها عن حُكْمِ التَّدْخُلِ الرَّوسِيِّ فِي سُورِيَا، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَيْسَتْ نَافِعَةً

لك في حالك، فلست ممن يشتغل بتدبير الأمور أمراً ونهياً، إحصاءً ورداً.

قال: **(أَوْ بِالنَّظَرِ إِلَى الْمَسْأَلَةِ نَفْسِهَا)**؛ بأن تسأل عن مسألة لا نفع فيها؛ كأن يسأل سائل

عن ماء طوفان نوح؛ هل كان عذباً أو كان مالِحاً؟، فهذا مما لا نفع للسائل فيه.

قال: **(وَمِثْلُهُ السُّؤَالُ عَمَّا لَمْ يَقَعْ، أَوْ مَا لَا يُحْدِثُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يُخْصُّ بِهِ قَوْمٌ دُونَ**

قَوْمٍ)؛ فإن من العلم ما يُجْعَلُ لخاصَّةٍ من النَّاسِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَذَلِكَ التَّخْصِيسُ لَيْسَ

منشؤه أحسابهم وأنسابهم أو أموالهم. كلاً؛ وَلَكِنْ منشؤه موافقته مداركهم، فدإئك لست

بمُحدثٍ قومًا حديثه لا تبلغه عقولهم؛ إِلَّا كان لبعضهم فتنة»، كما قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فإنَّ المتكلمَ بالعلم ينظر في منفعة كلامه إلى مَنْ يلقي إليهم العلم، فإنَّه ربما تكلم بكلام لا يفهمه بعضهم، فيكون فتنةً لهم، فيكون مقتضى نفع الخلق فيه أن يُخَصَّصَ به قوم دون قوم باعتبار صلاحية مداركهم له.

ولذلك كان المتعلمون فيما سبق عند العلماء لا يُنزلون منزلةً واحدةً، بل منهم مَنْ يصلح له هذا المجلس، ومنهم مَنْ لا يصلح له هذا المجلس، وتكون لهم مجالس يختصون بها من شاءوا لقوة مداركهم في العلم.

قال: (الأصل الثالث: الانتباه إلى صلاحية حال الشيخ للإجابة عن سؤاله) - أي: يتنبه إلى كون حال الشيخ تصلح لأن يجيب عن سؤاله -، (فلا يسأله في حال تمنعه؛ ككونه مهمومًا، أو متفكرًا، أو ماشيًا في طريق، أو راكبًا سيارته، بل يتحين طيب نفسه)، فينظر إلى المواقع التي تصلح للسؤال فيسأله فيها، فإذا رآه مهمومًا لشيء أصابه، أو رآه متأملًا متفكرًا - كأن يتكلم في مسألة في العلم ثم يتأمل -؛ فلا ينبغي أن تقطع تأمله بإلقاء السؤال عليه، أو تجده مشغولًا بطلب شيء - بالمشي في طريق، أو راكبًا سيارته -، بل ينبغي أن تتطلب الأوقات الحسنة التي تكون نفسه طيبةً فيها، فتلقي عليه تلك الأسئلة.

قال: (الأصل الرابع: تيقظ السائل إلى كيفية سؤاله) - يعني: أن يكون يقظًا في كيفية السؤال -، (بإخراجه في صورة حسنة متأدبة، فيقدم الدعاء للشيخ، ويبجله في خطابه)، فيقول: أحسن الله إليكم، داعيًا له، ويخاطبه بما يدلُّ على تعظيمه، يقول: أحسن الله إليكم شيخنا، ثم يورد سؤاله، (ولا تكون مخاطبته له كمخاطبته أهل السوق وأخلاق العوام)؛ يعني تجده في خطابه له فيه نزقٌ وشدةٌ، ويقع التخاطب معه كما يقع التخاطب بين أوباش الناس من الباعة وأخلاق العوام الذين يتكلمون بكلام لا يعدونه ولا يتفطنون له، فتجد بعض الطلبة يهجم على الشيخ؛ ما أن يُسلم الشيخ - كأن يكون إمامًا - من الصلاة ويقبل

على الناس يقول: (أستغفر الله وأتوب إليه، أستغفر الله وإليه وأتوب إليه، أستغفر الله وأتوب إليه، اللهم أنت السلام ومنك السلام) إلا وأحدهم يبادرك ويسألك؛ وهذا وقع لي وليس ضرباً من الخيال، وهذا ليس موقع سؤال، وتجده يلقي السؤال عليك بلا أستئذان، لا يقول: أحسن الله إليك، عندي سؤال ضروري، لا. تجده مباشرة يسأل السؤال، فالشيخ ولو احتمل قطعاً له لذكره؛ يشق عليه أن يحتمل سوء أدبه بإلقاءه الكلام كيفما اتفق، والإنسان ينبغي له أن يتأدب في العلم حتى يأخذ العلم، فالعالم صاحب العلم لا يرضى بأن لا يبالي الناس في العلم، إذا كنت أنت تحفظه أموالك وتحسبها، ولا ترضى أن يأخذ أحد منها شيئاً بدون حق، فإذا كان هذا حال الناس في أموالهم، فالدين أشد.

وقد حدثني أحد الإخوان - ولم أكن حاضراً - عن شيخنا عبد الله ابن عجيل رحمه الله تعالى أنه جاءه رجل إلى مجلسه ليقرأ عليه، فقال: أحسن الله إليك، أنا أريد أن أقرأ عليك، قال: ماذا تريد أن تقرأ؟، قال: «أخصر المختصرات»، فقال - وكان رحمه الله رقيقاً جداً مع كمال حزمه - : أقرأ. قال الرجل: (بسم الله الرحمن الرحيم، قال المصنف رحمه الله: كتاب الطهارة)، فقال له الشيخ: أليس عندك شيء قبله يا ولدي؟، قال: لا يا شيخ، أول شيء: (كتاب الطهارة، باب المياه)، فقال الشيخ: لا، أنا عندي قبله: (مقدمة...)، قال: يا شيخ؛ هذه مقدمة سهلة واضحة، تبدأ بالفقه، قال له الشيخ: ينبغي أن تقرأ الكتاب من أوله حتى تستفيد، قال: يا شيخ؛ أنا والله أوقاتي ضيقة، ومُنذ مُدَّة وأنا أريد أن أقرأ عليك لكن لم يتيسر لي، والآن اتفق أنني صليتُ عندك فأحببتُ أن أقرأ عليك، وبوَدِّي أن نستفيد من الوقت!. قال الشيخ: يا ولدي؛ أذهب، وإذا اتسع وقتك تأتينا وتقرأ «أخصر المختصرات» من أوله. فذهب وما قرأ عليه أبداً.

فهذا هو إكرام العلم وحفظه، فلأنه لم يأخذ العلم بحقه فلا بد أن يُعامل بما يؤدبه.

وكذلك السائل الذي لا يخاطب أهل العلم بما ينبغي من مخاطبتهم ينبغي له أن يؤدّب، والعلماء يفرقون بين سؤال العامّي وبين سؤال ملتمس العلم، فالعامّي له حال، وملتمس العلم له حال، لذلك الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ كان بعد العصر يذكر أذكاره ويأتيه الناس العوام من خارج عيضة، فهؤلاء يجعلهم يسألون، أمّا طالب العلم فلا يسمح له، بل يقول له: أنت تسأل في الدرس، لا تسأل هنا، هذا مُعدُّ للعوام ولا يُسمح لغيرهم.

فمرة رأيتُ أحدَ العامّة لم يقتدِ بطريقة الشيخ أنهم يجلسون على يمينه ينتظرون واحدا واحدا ويسألون بعد ذلك إذا فرغ من أذكاره، فجاء وهجم على الشيخ مباشرة، فزجره الشيخ وقال له: أجلس في مكانك مع الناس؛ لأنّ الإنسان إذا لم تأدّب يؤدّب حتى ينتفع، وإلا أن يجعل العلم لا جناب له ولا حفظ فهذا من أسباب ذهاب العلم، لماذا الناس الآن يطلبون العلم خمس وست سنوات، ولا يفلمون؟؛ لأنهم لم يأخذوا بحقه، لكن إذا أخذوا بحقه ينتفعون في مدّة يسيرة.

ومن اللطائف أنّ الشيخ محمّد بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ كان يعتني بالطلّبة، فيوقظ النائم يوقظه، ويُنّبّه الغافل، والذي يقع منه سوء أدب يرده، فأحد أصحابنا ممن كان يحضر دروسه بلغ به الحال كما يقول لي: مرّة وأنا في السيارة وأسمع درسا للشيخ، يقول: وكنت أفعل بلحيتي هكذا، وإذا بالشيخ يقول: لا تعبت بلحيتك!!، يقصد الشيخ أحد الجالسين، يقول صاحبنا: وكأنه يخاطبني.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد التاسع عشر
شَغَفُ الْقَلْبِ بِالْعِلْمِ وَغَلَبَتُهُ عَلَيْهِ

فَصِدْقُ الطَّلَبِ لَهُ يُوجِبُ مَحَبَّتَهُ، وَتَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِهِ، وَلَا يَنَالُ الْعَبْدُ دَرَجَةَ الْعِلْمِ حَتَّى تَكُونَ لَذَّتُهُ الْكُبْرَى فِيهِ.

وَإِنَّمَا تُنَالُ لَذَّةَ الْعِلْمِ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ، ذَكَرَهَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ الْقَيْمِ:
أَحَدُهَا: بَذْلُ الْوُسْعِ وَالْجُهْدِ.

وَتَانِيهَا: صِدْقُ الطَّلَبِ.

وَتَالِثُهَا: صِحَّةُ النِّيَّةِ وَالْإِخْلَاصِ.

وَلَا تَتِمُّ هَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ إِلَّا مَعَ دَفْعِ كُلِّ مَا يُشْغِلُ عَنِ الْقَلْبِ.

إِنَّ لَذَّةَ الْعِلْمِ فَوْقَ لَذَّةِ السُّلْطَانِ وَالْحُكْمِ الَّتِي تَتَطَّلَعُ إِلَيْهَا نُفُوسٌ كَثِيرَةٌ، وَتُبَدَّلُ لِأَجْلِهَا
أَمْوَالٌ وَفِيرَةٌ، وَتُسْفَكَ دِمَاءٌ غَزِيرَةٌ.

وَلِهَذَا كَانَتْ الْمُلُوكُ تُتَوَقَّعُ إِلَى لَذَّةِ الْعِلْمِ، وَتُحْسِنُ فَقْدَهَا، وَتَطْلُبُ تَحْصِيلَهَا.

قِيلَ لِأَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ - الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْمَشْهُورِ الَّذِي كَانَتْ مَمَالِكُهُ تَمَلَأُ الشَّرْقَ
وَالْغَرْبَ - : هَلْ بَقِيَ مِنْ لَذَاتِ الدُّنْيَا شَيْءٌ لَمْ تَنْلُهُ؟، فَقَالَ - وَهُوَ مُسْتَوٍ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَسَرِيرِ
مُلْكِهِ - : «بَقِيَتْ خَصْلَةٌ: أَنْ أَقْعُدَ عَلَى مِصْطَبَةٍ، وَحَوْلِي أَصْحَابُ الْحَدِيثِ - أَيُّ طُلَّابِ
الْعِلْمِ -، فَيَقُولُ الْمُسْتَمْلِي: مَنْ ذَكَرْتَ رَحِمَكَ اللَّهُ؟».

يَعْنِي: فَيَقُولُ: حَدَّثْنَا فُلَانٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا فُلَانٌ، وَيُسَوِّقُ الْأَحَادِيثَ الْمُسْنَدَةَ.

وَمَتَى عُمِرَ الْقَلْبُ بِلَذَّةِ الْعِلْمِ سَقَطَتْ لَذَاتُ الْعَادَاتِ وَذَهَلَتِ النَّفْسُ عَنْهَا، بَلْ تَسْتَحِيلُ
الْأَلَامُ لَذَّةَ بَهْذِهِ اللَّذَّةِ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ :

ذكر المصنّف وفّقهُ اللهُ معقداً آخرًا من معاهد تعظيم العلم؛ وهو: **(شَغَفُ الْقَلْبِ بِالْعِلْمِ وَغَلَبَتُهُ عَلَيْهِ)** أي: شدة محبته، وشغف القلب: بلوغ المحبة شغاف القلب - يعني: باطنه -، فمن تعظيم العلم أن تقوى محبة القلب له حتى تغلب عليه.

قال: **(فَصِدْقُ الطَّلَبِ لَهُ يُوجِبُ مَحَبَّتَهُ، وَتَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِهِ، وَلَا يَنَالُ الْعَبْدُ دَرَجَةَ الْعِلْمِ حَتَّى تَكُونَ لَذَّتُهُ الْكُبْرَى فِيهِ).**

ثم ذكر ما تُنال به لذة العلم، وهو **(ثَلَاثَةُ أُمُورٍ، ذَكَرَهَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ الْقَيْمِ)** في «مفتاح دار السعادة»:

(أَحَدُهَا: بَذْلُ الْوُسْعِ وَالْجُهْدِ)؛ أي: في طلبه وتحصيله، فيبذل طاقته وقدرته في طلب العلم؛ كجلوسنا مدةً طويلةً في هذا المجلس، فإن هذا من صدق المحبة، بأن يبذل وسعه وجهده، وإذا أردت أن تعرف كم تستطيع أن تجلس في مجلسٍ فانظر إلى مجالس المؤانسة التي تجلس فيها من بعد صلاة العشاء إلى الساعة الثانية عشر أو الساعة الواحدة، حتى تعرف مقدار ما ينبغي أن تكون عليه محبة قلبك للعلم حتى تصدق فيه.

قال: **(وَتَانِيهَا: صِدْقُ الطَّلَبِ)**، بأن يتوجه إليه توجُّهًا كاملاً؛ فلا يشغله عنه شيءٌ.

(وَتَالِثُهَا: صِحَّةُ النِّيَّةِ وَالْإِخْلَاصُ)؛ بأن يُصَحِّحَ نِيَّتَهُ فِي طَلْبِهِ، وَيُصَفِّيَ قَلْبَهُ فِي أَخْذِهِ.

وتقدّم أن النية شرعاً هي: إرادة القلب العمل تقرباً إلى الله، وأن الإخلاص شرعاً هو: تصفية القلب من إرادة غير الله. فالإخلاص هو الصفة الشرعية للنية.

ثم قال: **(وَلَا تَتِمُّ هَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ إِلَّا مَعَ دَفْعِ كُلِّ مَا يُشْغِلُ عَنِ الْقَلْبِ).**

ثم قال: **(إِنَّ لَذَّةَ الْعِلْمِ فَوْقَ لَذَّةِ السُّلْطَانِ وَالْحُكْمِ الَّتِي تَتَطَّلَعُ إِلَيْهَا نُفُوسٌ كَثِيرَةٌ، وَتُبَدَّلُ لِأَجْلِهَا أَمْوَالٌ وَفِيرَةٌ، وَتُسْفَكُ دِمَاءٌ غَزِيرَةٌ)؛** فلذة العلم فوق أعظم لذة يعدّها الناس، وهي لذة الولاية في السلطنة والحكم، فإن الملوك الذين بلغوها كانوا يتأسفون على فوات لذة

العلم، كما في خبر (أبي جعفر المنصور) - وهو من هو في الملك والحكم - أنه قيل له: (هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله؟)، فقال - وهو مستو على كرسيه وسرير ملكه -: «بقيت خصلة: أن أقعد على مضطبة» - أي: مكان مرتفع؛ كالكرسي والدكان؛ فهذه أسماء للأماكن المرتفعة -، (وحوالي أصحاب الحديث - أي طلاب العلم -، فيقول المستملي من ذكرت رحمتك الله؟)؛ والمستملي: اسم لمن يستدعي حديث المحدث بقوله: (من ذكرت رحمتك الله؟)، فالمستملي يجلس بين يدي المحدث فيقول له: (من ذكرت رحمتك الله؟)، فيقول: (حدثنا فلان، قال: حدثنا فلان)، حتى يتم، ثم يبلغ عنه ويعيد (من ذكرت رحمتك الله؟)، حتى يكمل مجلسه.

قال: (يعني: فيقول: حدثنا فلان، قال: حدثنا فلان، ويسوق الأحاديث المسندة).

قال: (ومتى عمر القلب بلذة العلم سقطت لذات العادات وذهلت النفس عنها؟) أي: إذا قويت لذة العلم في القلب؛ فاللذات التي اعتادها الناس في الأكل والشرب والنوم تذهل النفس عنها، والنووي رحمه الله لما ابتداء طلب العلم بقي أربع سنين لا ينام إلا أتكأ؛ يعني: يلقي وسائد يتكى عليها، فيغفو ثم يستيقظ، فعل هذا أربع سنين!! لأن محبة العلم غلبت على قلبه، فتلك اللذات التي اعتادها الناس لم يعد لها طعم عنده.

ومثله الطعام؛ فتجد المشتغل بالعلم ربما غفل عن لذة الطعام، وقد لقيت رجلاً خدام العلامة حافظاً الحكمي عدة سنين، فسألته عن أحوال الشيخ حافظ، فذكر لي أنه كان ربما يأتي له بالطعام، يقول: وأنتظر عنده رجاء أن أصيب من الطعام - لأن الطعام كان قليلاً في الناس -، يقول: فيبقى الطعام مدة طويلة وهو يقرأ في الكتب لا يلتفت إليه، فإذا طال الوقت زماناً طويلاً قلت له: الطعام أحسن الله إليك، فيقول لي بعد ذلك: كل أنت، فأنا لا أريد أن أكل، فأتي إلى الطعام وإذا هو قد برد فلا أنتفع به كثيراً.

فانظر إلى أنه غفل عن الطعام أولاً، ثم بعد ذلك لم يطلبه بل أنصرف عنه؛ لأن محبة العلم

غلبت على قلبه، فلا يجد لذّة إلا في هذا الأمر.

قال: **(بَلْ تَسْتَحِيلُ الْأَلَامَ لَذَّةً بِهَذِهِ اللَّذَّةِ)**؛ يعني: الآلام التي يلاقيها الإنسان إذا تمكنت لذّة العلم في قلبه تتحول إلى لذّة، فمثلا: ألم المشي في العلم، قد تمشي للوصول إلى شيخ ساعات على قدميك، هذه الآلام التي يجدها الناس هي عندك لذة؛ لشدة محبتك للعلم، تجد بعض الناس مهما بلغ به المرض لكن يرى أن العلم يخفف عنه، فأنت الآن إذا جئت إلى مريضا اشتد به المرض وأحدثت عنده صوت يتضجر عادة، لكن هذا الألم الذي يتضجر منه الناس قد يكون عند بعض الناس لذّة.

كان أحد المشايخ - وتوفي رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وقد جاوز المائة لما توفي - مقرئا للقرآن، فأصيب بمرض شديد، فكان يوصي أولاده وأهله أنه مهما بلغ به المرض فلا يمنعوا أحدا أن يقرأ عنده القرآن، يقول: يكون رقية لي، مهما بلغ بي من الألم فإن سماع القرآن يخفف عني، فمات رَحْمَةُ اللَّهِ وَهُوَ يُقْرَأُ عَلَيْهِ، وطلابه حرصوا على أن يلازموه مع شدّة مرضه لما رأوا محبته له.

فهذا الصّوت عادة يؤلم ويضجر، لكن هو يرى أن هذا الصّوت الذي يسمعه من القرآن - الذي بقي رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى أكثر من ثمانين سنة يُقرئه - من اللذّة، وإن عدّه الناس ألماً.



قال المصنف وفقه الله :

المعقد العشرون حفظ الوقت في العلم

قال ابن الجوزي في «صيد خاطره»: «ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل». ومن هنا عظمت رعاية العلماء للوقت، حتى قال محمد بن عبد الباقي البزاز: «ما ضيعت ساعة من عمري في لهو أو لعب». وقال أبو الوفاء بن عقيل - الذي صنف كتاب «الفنون» في ثمانمائة مجلد - : «إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري».

وبلغت بهم الحال أن يقرأ عليهم حال الأكل، بل كان يقرأ عليهم وهم في دار الخلاء. فاحفظ أيها الطالب وقتك؛ فلقد أبلغ الوزير الصالح ابن هبيرة في نصحك بقوله:
والوقت أنفس ما عנית بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع



قال الشارح وفقه الله :

ختم المصنف وفقه الله معاهد تعظيم العلم بالمعقد المتتم العشرين؛ وهو: (حفظ الوقت في العلم)؛ لأن الوقت هو ظرف زمان الأعمال، فالعلم لا يدرك ولا يُنال إلا بحفظ ظرفه من الزمن.

وذكر كلام ابن الجوزي: («ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل»).

ثم قال: (وَمَنْ هُنَا عَظَمَتْ رِعَايَةَ الْعُلَمَاءِ لِلْوَقْتِ) - أي: أشدَّت عنايةهم بالوقت، وتعظيمهم له - (حَتَّى قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي الْبَزَّازُ: «مَا ضَيَّعْتُ سَاعَةً مِنْ عُمْرِي فِي هُوٍ أَوْ لَعِبٍ»); أي: لا يحفظ عن نفسه أنه ضيَّع ساعة من عمره فيما يضيع فيه الوقت من اللهو أو اللعب.

(وَقَالَ أَبُو الْوَفَاءِ بْنُ عَقِيلٍ - الَّذِي صَنَّفَ كِتَابَ «الْفُنُونِ» فِي ثَمَانِيَةِ مَجَلِّدٍ -: «إِنِّي لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَضَيِّعَ سَاعَةً مِنْ عُمْرِي»); أي: لا يرى أن لنفسه حلالاً أن يضيع ساعة من عمره، فكان يشتدُّ في حفظ وقته.

قال: (وَبَلَغَتْ بِهِمُ الْحَالُ أَنْ يُقْرَأَ عَلَيْهِمْ حَالَ الْأَكْلِ، بَلْ كَانَ يُقْرَأُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي دَارِ الْخَلَاءِ); أي: حفظاً للوقت، فيكون القارئ خارج دار الخلاء، ويقرأ العلم على من بداخله؛ حفظاً للوقت في العلم.

قال: (فَاحْفَظْ أَيُّهَا الطَّالِبُ وَقْتَكَ؛ فَلَقَدْ أَبْلَغَ الْوَزِيرُ الصَّالِحُ أَبُو هُبَيْرَةَ فِي نُصْحِكَ بِقَوْلِهِ:

وَالْوَقْتُ أَنْفَسُ مَا عُنِيَتْ بِحِفْظِهِ وَأَرَاهُ أَسْهَلَ مَا عَلَيْكَ يَضِيْعُ

(وَالْوَقْتُ أَنْفَسُ مَا عُنِيَتْ بِحِفْظِهِ); أي: أشدُّ ما ينبغي أن تعني بحفظه.

(وَأَرَاهُ); يجوز فيه الضَّمُّ والفتح، فد (أراه) - بالضَّمِّ -؛ أي: أظنُّه، و (أراه) - بالفتح -؛

أي: أقطع جازماً جزءاً علمياً بأنَّ أسهل ما عليك من الضياع هو ضياع الوقت.

فطالب العلم ينبغي له أن يحرص على حفظ وقته، فإنه لا ينال العلم إلا بهذا.

ونكون بهذا قد ختمنا هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم على نبيِّنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.

تَمَّ الشَّرْحُ فِي مَجْلِسَيْنِ
 لَيْلَةَ السَّبْتِ غُرَّةَ شَهْرِ الْمُحَرَّمِ
 سَنَةِ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ وَالْأَلْفِ
 فِي مَسْجِدِ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ بِمَدِينَةِ الرِّيَاضِ

